سلسلة آفاق عربية
174





همس الشبابيك

(نص سردى)

سمير أحمد الشريف

وزارة الثقافة



سلسلة
آفاق عربية
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• همس الشبابيك
• سمير احمد الشريف
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
ياسمين مجدى
• رقم الإيداع: ٢٢٢٤٠ / ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-952-1
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

175
سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

همس الشبابيك

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون)

المؤمنون١١٥

عتبة

ها أنذا أنثر أوراقي
هل أكتبها أم تكتبني
أم يكتب أحدنا الآخر؟
بل يكتبني غيابها الذي يبعث في
الكلمات
لماذا تحضر في الآن دمعة صافية شفافة كحلم، رقيقة كنسمة؟
أمعن في الأوراق حولي
يستصرخني بياضها
صمت يفرد أجنحته
وحدي أمام شمعة غرقت في دهن عريها
يتلألأ بقايا ضوء خافت يلمع على وجهي وينوس من بعيد تهب
عليّ روائحها
يستصرخني غيابها
أعلن عجزي عن الوصول إليها
عن تمثلها بشرا، عن الإمساك بها ولو مجرد حلم.
هل تمحو الكتابة آثارنا التي تذكرنا بذواتنا؟
هل تساعدنا على القول بوضوح ما نمارسه في حيواتنا بغموض؟
في الليل تشع عيناها ويختلج في روحها ويطهرني ياسمين غيابها.

لجسدها بعد الحمّام الدافئ المعطر بالنعناع سطوة. لحظة أن ينسل من نافذة الحمام ضوء القمر منعكسا على الجسد المبلل بآثار الماء والبخار. دقات دفينة تتناهى إليّ حين يختلط لون السرير ببياض المناشف بلمعان الجسد. مستسلما لِسنة حالمة بعد أن أغفو على همسة مبحوحة حبيبة.

أقفل على غير اللحظة. لا تجعلن التفكير يأخذك للبعيد. عش لحظتك!

لماذا نعيش الألم مرة بتوقعه وأخرى بمعايشته؟ ألا نعرف أن خوفنا من انتظار طارئ أكثر إيلاما من وقوعه؟

دع بهجة اللحظة تورق فينا. لم أسألها عن اسمها. لم أحاول اختصارها بامرأة. فهي مجموع نساء. من ينقذها من غموضها؟ من يستقرئ تضاريسها ويستكنه رقتها التي تسمح لبخور الجسد أن يتضوع.

أحْترق لاسترجاع ملامحها. حنانها القاسي. رقتها الجارحة. طغيانها. تحضر طيفا بلا وجه ولا تفاصيل. هل كانت امرأة من وهم أم طيف أنثى؟

أتنفس أوجاع روحها. يغسلني رحيق جسدها وتعجزني كتابتها. أتشبث برائحتها التي تكون بها روحا منطلقة يملؤني إشراقها.

قبل الاستسلام لدغدغة الماء الساخن تصر على قضاء ساعة تجترح تمارين تعتصر عرق جسدها. تتعمد الاقتراب لتمكنني من استنشاق أزهار الربيع. تعدو مهرة الحق بي إن قدرت فعرقي ماء روحي.

تهب كعاصفة، تلفح وجنتيّ كأمنية، لرائحة الجسد مضمخا بالصابون إحساس مؤلم، أمعن في خريطتها فتصبح كائنا آخر، أستعيد به انطفائي، أحاول أن أكتبها فأكتب بها منفاي، من منا غادر من؟ مشرقة دوما، لعمق ما عرفتها ضاعت عني تفاصيلها، أحاول أن أكتبها، ألون منفاي بها، غربتي وغموضي عنها، أعوض ما لم اقله بصمتي، يتنازعني خوف وألم وبقايا جذوة هروب، أرسمها حلما يتوهج على كفي، تشرق مساماتها، أحاول العبور إليها، أستحل رحيق اللغة وأقطف مذاق تبرعم الأزهار، يطالعني وجهها صفحة بحيرة معتكرة، جروح وذكريات، يلفحني ضوء، يتخللني صمتها، يتجذر إحساسي بها حد الفجيعة، فتشت في تلافيفها عن رغبة، لم أجد غير جزيرة نائية، مشرقة يكتنفها غموض آسر، ونجمة صبح يسطع ضوؤها في صفحة سماء ليس فيها غيوم، تعوم في بحر من ضياء، تحتدم رغبتها وتضطرم باشتعالاتها، مرآة كينونتي هي، وبوصلة رغبتي، كيف تستيقظ فيّ بعد هذا النوم؟

لماذا ينساح في دواخلنا فراغ كان يشع فينا؟ كم حاولت تجاوز ألق تلك الرعشة؟ كم كانت نظرتك مشبعة بالغامض المتوحش، كم كنت غامضة تشتاق لمزيد اشتعال ومزيد تطهر، تحاصرك الحيرة وفجيعة انتظار لا نهائية!!

شباكة (١)

وحدي

أصوات منسية

أطياف تجتازني

وجوه تستيقظ

تهب من ماض مجهول

تتكسر صورة العالم

تهب الذكريات باهتة

الورق يبعث فيّ قلقا جارحا

أمحق الإحساس الخانق بالوحدة

لم يكن يغفو فيّ شيء

أغرق برطوبة التلذذ الغامض

يوقظ القمر رهبة نائمة

يذكي في الجسد دفئا غريبا

ينثر صمته الفضيّ

حنين لرؤية وجه

مبعثر بين ورقة ونافذة وطيف حبيب

غادر تاركا خلفه كل شيء

كان صلتي بالحياة

جلسنا منكسرين على حافة الغياب

أسترجع أحاسيسها الغامضة

أضحت هاجسي

وحدي مع أوراق يستصرخني بياضها

أنظر لها متهيبا

أدركت عمق ما كانت تحسه

وحدي بين الأوراق

أعاقر دفء الذكرى

فلسفتها صيرتني كائنا مختلفا

أقنعَتُها

سلوكها مع المحيطين,

مع زوجها.

منذ اللقاء الأول أدركت عمق حضورها

تهاتفني

أدلها على مسير القمر السابح

تفتح نافذتها

تسرح في البعيد.

أفكار تبعثرني

نلتصق. نتماهى

في احتراقنا.

غموضنا

قلقنا.

نغدو كيانا بروح واحدة

كانت كوّة أبصر بها

أثارت مكامن خوفي

منحتني فرصة الغياب عن نفسي.

شباكة (٢)

لو كنت صادقا مع نفسي هل أجيب عن سؤال صغير

: - لماذا ياسمين؟

هي قد واجهت نفسها بالتأكيد وطرحت نفس السؤال واحتفظت بالإجابة. فماذا عنك أنت؟

امرأة تختصر النساء رقة وعذوبة ودفئا. تتحدث عن نفسها بثقة. واضحة صريحة جريئة. لكن الذي استوقفك ذلك الحزن الغائر في العينين مما تستشفه الروح دون أن تسمح له بالظهور. هل تعاطفت مع الحالة؟ وأن الموضوع مجرد شفقة؟. صحيح أن ظهورها في حياتك جعل منك شخصا آخر. غيرت نظرتك لكثير مما حولك حتى نظرتك لذاتك. أدركت بها كم هي حاجتك لامرأة مختلفة لا يستطيع غيرها دوزنة إيقاعك والعزف على أوتار روحك. وجودها أيقظ فيك كوامن بعيدة ظلت مركونة هناك وأشعرتك بوجودك.

مشكلتها أنها تختصر شخصك في وسامتك ولا تجد منفذا لوجودك إلا عينيك. كم رغبت أن تصغي لك. تشرح لها عن ماضيك وعن الحواجز داخلك والمعتقلات التي أطفأت أعقاب سجائرها في كتفيك!

كم تتمنى أن تسمع منك شيئا عن الأماكن القابعة في وجدانك، عن الناس الذين تغيروا وقايضوا الشعارات بالمال والكرامة بالخيانة. عن النساء اللواتي لم يجدن فيك غير جسد. رائحة روحها تستشعرها مرفرفة فوق سريرك كلما جن الليل. رائحة ياسمينها تذوب في غرفتك فتتنزل رذاذا وبلسما. خلصتك من وحدتك التي يلتف حولها الأهل والأصدقاء. لها مفتاحها للعبور إلى هناك.

وقفت بك على جسر من مشاعر، تعلمك كيف نتفهم ونرثي من يسيئون لنا حتى نتذوق طعم الوجود. تزرع فيك أن الرجل الذي تدمره امرأة لن ترحمه إلا امرأة غيرها وتمنحك بصدق مشاعرها فتحولك بين يديها طفلا كبيرا.

تحب بجنون لكنها تكره بحنان. تؤكد عليك أن المرء مهما كبر، يظل بحاجة لمن يستمع إليه وتدربك على التعايش مع اللحظات القليلة بسمو عندما يصبح لها مذاقها وعمقها لحظة أن تجالس من تحب في لحظة وجد نضيفها لأعمارنا.

علاقتك بياسمين أحيت فيك عشقا غارقا في سباته وذرفت بين يديها دموعا تشربت ألم جوفك الملتهب ومنحتك ما يشبه صحوة الموت. أيقظت فيك حاجة عميقة لحضن دافئ تستعيد معه وبه طفولتك.

شباك الجارة (٣)

جارتي التي يسمونها ياسمين وسكنت من مدة هنا. حركتها خفيفة في الحي لا تكاد ترى. علينا نحن المبادرة بالسلام عليها والتعرف بها. عملا بتعاليم إسلامنا العظيم. الحياة أصبحت أكثر تعقيدا عما كانت عليه أيام أمهاتنا وجداتنا نتيجة التطور والسرعة وأشياء كثيرة أخرى لكن ذلك كله يجب ألاّ يوقف التواصل بين الناس والأهل والجيران. أليس الجار هو الذي ظل جبريل عليه السلام يوصينا به حتى كاد أن يورثه؟ فضل التواصل مع الناس عظيم وحكمه بالغة ولولا ذلك ما أوصى عليه النبي مرة ومرة. هل أذهب لزيارة ياسمين وحدي أم أذهب مع جاراتي لنأخذ الأجر جميعا؟ سنلتقي بالتأكيد بعد صلاة العصر ونتدبر الأمر معا ونقوم بواجب الزيارة بإذن الله.

شباك الأرشيف (٤)

دخلت أمريكا العالم العربي تحت مسمى ما يعرف الآن بالجامعة الأمريكية. وقبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل بدأ الأثرياء الأوروبيون والأمريكان زحفهم السياحي نحو الشرق وعند اشتعال نيران الحرب الكونية الثانية قصرت أمريكا علاقتها بالشرق بإمداد خطوط كل من موسوليني وهتلر وكانت هذه الحرب آخر مرحلة من تغافل الأمريكيين للمنطقة العربية حيث بدأوا ينظرون للعالم العربي بعيون دولة جديدة قوية صاحبة أكبر توسع اقتصادي في العصر الحديث. باحثة عن وسائل للاستفادة من احتياطي البترول الضخم في العالم العربي وتمكنت من توقيع عقود للبحث والتنقيب عن البترول عبر شركة أرامكو عام ١٩٤٥. واكب ذلك انتشار رجال الأعمال والمال والتجار والبنوك الأمريكيين في بيروت وبدأوا بالانتشار في أسواق جديدة لم تكن معروفة من قبل وما إن جاء عام ١٩٤٨ حتى زحفت المصالح الأمريكية بوضوح للعالم العربي. الأمر الذي يمكن النظر إليه تاريخيا أن التدخل الأمريكي في السياسة العربية والشرق الأوسط بدأ كذلك في نفس العام في فلسطين. وليبدأ من ثم زحف المصالح الأمريكية في الشرق باتساع وحراك شديدين. حيث لعبت مع دول أخرى دور القابلة في ولادة إسرائيل. محققين حسب

زعمهم عدالة بأثر رجعي للظلم الذي وقع بحق اليهود وإعادة الاعتبار لهم بهدف تحقيق الحلم الصهيوني!!

الهزيمة التي لحقت بالعالم العربي تبعها صوت جذب واستقطب جماهير الأمة بخطبه الحماسية التي تلهب الأكف والحناجر وحشدها جبهة ضد المستعمر الغربي. فأمم قناة السويس وأربك الاقتصاد العالمي ورفع أسعار البترول وأيقظ الغرب على خطر عربي لسلاح يمكن أن يكون مزلزلا. الأمر الذي كوّن رد فعل غربي تمثل في حلف ثلاثي كخطوة أولى ضد الرئيس الذي ندد بالغرب تألف من كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فقصفت منطقة القناة ودمرت مدينة الإسماعيلية وخسرنا معركة ١٩٥٦ ولكننا كسبنا الحرب!! وليتشكل إثر ذلك نواة حركة عدم الانحياز مع نهرو الهند وتيتو يوغسلافيا ودخلت منطقتنا في أمواج الحرب الباردة بعد أن تقدم الروس بمد العرب بالسلاح والخبرات العسكرية.

اقتحمت مشاة البحرية الأمريكية شواطئ بيروت عام١٩٥٨ بعد اغتيال ملك العراق وما أن حل الخامس من حزيران ١٩٦٧ حتى توقفت الحنجرة التي ألهبت مشاعر الملايين وحشدتهم ضد الغرب لتسجل كارثة وهزيمة أخرى. وتغيرت ملامح الخريطة السياسية والجغرافية للشرق الأوسط. وأصبح الأمريكيون في مهب السياسة العربية والمطبخ الدولي ولتبدأ أعمال المقاومة ضد الغرب وإسرائيل بخطف الطائرات واقتحام الملاعب الرياضية في ميونخ واحتجاز الرهائن وضرب أهداف

استراتيجية غربية في أقاصي العالم، وهكذا فرض العالم العربي إرهاصات السياسة فيه على الاقتصاد الناخب والبيت الأمريكي عندما تكلل ذلك بقطع إمداد البترول العربي عن الغرب وأمريكا عام١٩٧٣.

أما عام ١٩٧٩ فشكل انعطافة أخرى في علاقة الغرب وأمريكا بالعرب المسلمين إثر نجاح الثورة الخمينية التي رفعت شعار تصدير الثورة، وهتفت الموت لأمريكا، وبداية مسلسل اقتحام السفارات وحجز الرهائن حتى وصول عام١٩٨٢ الذي شكل لأمريكا صفعة جديدة في لبنان وتم فيها حصد ما مجموعة ٢٤٠ من مشاة البحرية وعمت الفوضى واختطفت بعض الشخصيات والصحفيين مما اضطر الأمريكيين على المغادرة وليشكل العام ١٩٩٠ باجتياح العراق للكويت نقطة تحول عالمية وعربية كبرى، خاصة الحرب التي اندلعت عام ١٩٩١ وانتهت لما انتهت إليه ونجحت أمريكا في عقد مؤتمر سلام بين العرب والإسرائيليين ولتواجه أمريكا عالما عربيا لا تفهم منه الكثير، وأقحمت نفسها فعليا في دوامة لا يمكن التكهن بنتائجها، وتشكلت قناعات لدى العامة بعد الخاصة أن الوجود الأمريكي له هدفان : البترول العربي وحماية الفكرة الصهيونية ومدها بنسغ البقاء والوقوف أمام المد الشيوعي للاقتراب من العالم الإسلامي والعربي ومنابع البترول فيه.

العالم العربي الذي تتنازعه إحساسات عميقة ومتجذرة بالوحدة وفي نفس الوقت صراعاتهم حول مسائلهم الضيقة أوصلت العرب لحالة من الفوضى جعلتهم يعيشون مرارة الواقع والحلم بين الوحدة

والانفصال. رغم ما يجمعهم من عوامل لا تتوفر لأية أمة أخرى من رابطة التاريخ والدين واللغة. ولأن العرب ليسوا مواطنين لدولة قومية ويعيشون في جماعات متنافسة فإن فكرة القومية عربية عنها وعن حضارتها العربية. والعرب يعتبرون أن فكرة القومية ليست نابعة من تربتهم بل فرضت عليهم من الخارج ومن أوروبا تحديدا في بدايات القرن العشرين. أما محاولاتهم لبناء دولة عصرية فلم تبرح النظرة القبلية مسيطرة. ورجال السلطة هناك تتقاذفهم مصالحهم ومصالح جماعاتهم ودولهم التي يفصلونها على ذائقتهم. وبما لا يستوعبه الغرب أن العرب رغم تدابرهم واختلاف توجهاتهم يتمسكون جميعا حذ الإجماع على التزامهم العاطفي تجاه الوحدة بحيث لا تجد أحدا مهما صغر أو كبر. يغامر برفض الوحدة أو يرفضها لأن العرب موحدون بالمشاعر ومرتبطون بجهاز عصبي حال تعرضهم للضغط. ولا تدري من أي جزء يكون رد الفعل عندهم.

شباكة (٥)

لست كما تظنين. ما عرف البخل طريقه لي خاصة في مسألة المشاعر غير أنني أحب أن تكون عواطفي مضبوطة بإيقاعي العقلي الوجداني منسجمة مع كينونتي حتى لا أفسّر بشكل خاطئ.

كلمات فلتت منكِ بلا وعي لكنها تركت لديّ فيضانا من التفكير. ربما لم تقصدي حرفية ما قلت ولكنني لا أفوت كلمة حسبما علقت. ذكرت الشذوذ وربما تواريت خوفا وما دريت أنه نوعان، واحد للغاية وآخر للوسيلة فأي الذي تعنين؟ نحاول يا ياسمين أن نتشبث بأوهام وننسى أن للحياة سطوة وأننا نعيش في قبضتها مرغمين.

لماذا تهربين إلى الحبوب؟ أليس لأنك تستدرين غيبوبة لتجترحين محاولات يائسة لتبرري أعمالا تقومين بها بكل وعي؟ حتى لعبة الجسد التي تفلسفينها. أليست غير تصريف لتوتر يقتلعنا ويخدر وعينا مؤقتا؟ قد نختلف بتقبل الفكرة. قد نفسر الأمر بلغة مختلفة. لكن اختلافنا ينطلق من زاوية الرؤية فقط ولكلٍ متراسه الذي يتوارى خلفه ونقطته السوداء التي لن يبوح بعمقها مهما حاول أن يكون صريحا.

حاضرنا معا ليس كما بدأنا. طرأ على وجداني تغيرات غامضة. هروب.

مراجعة. إعادة تأمل. عبرت بك حالة وجودية جديدة تحملني رياحها دون أن أعرف إلى أين. لكنه حلو المذاق حارق التجذر مضطرم الوهج. يصل بي أحيانا لشعور مطلق بالأمان والراحة والثقة بالنفس. تتملكني حالة وجد دافئة تنسل نحو أعماق تغور في الذات بعيدا.

آخر لقاء، هربت دون وداع، جرحتني حركتك. ندمت على الحضور، أحاول التعمق في أسبابك. لتعلمي أن لي أسبابي، أردت أن أطيل توهجي بك. رغبت أن تتغلغل روحك في مسامات روحي فلماذا هربت!

هروبك فتح معين الذاكرة على فضاءات لا تحد وراح يتدفق غزيرا. أحسست بقلبي يقف ذاهلا بين اليأس والرجاء والفرح والغضب والحب والكراهية. لم تستديري وتنظري في عيني كعادتك لتقرأي عمق الجرح الذي نزف بصمت. نحاول معا أن نفلسف ما بيننا بالبحث عن تفسيرات سيكولوجية لأشياء تخبئها دواخلنا. فهل صحيح وأنت تؤمنين بالروح وانفلاتاتها أن لديّ قدرة على التأثير على الآخر؟ ربما هو مجرد شعور داخلي ونشوة خاصة تمتلكها وتشعرنا بالرضى عن أنفسنا لحظات توصلنا لمرحلة الوعي الأرقى. كثيرا ما تساءلت: لماذا أنا ولماذا أنت؟ هل متعتنا معا تأتي من أننا نتعامل مع مجهول آخر فينا؟ وهل يصح القول أن العلاقة بين المحبين تقوم على الغرابة؟

وقفت في آخر لقاء على موضوعة الجسد وكيفية التعاطي معه. ظللت تحومين حول فكرة لم توصلها حروفك وتشربتها روحي مفادها أن الأمر بالنسبة لك يتعلق ويفسر بفكرة انتهاك نقاء الإنسان وربما ربطت الأمر بالخطيئة

الأولى!إن الانغماس في لعبة الجسد يظل متنفسا لإرادة القوة فينا، وإن صورة المرأة التي ترضي غرور الرجل ليست إلا صورة ذهنية، لكنك لا تريدين تصديق أن العملية ترتبط بالرضوخ والاستسلام وتحاولين الالتفاف عليها ومنطقتها وإيجاد المبررات لها، أليست العملية تصغيرا للسيطرة والإخضاع؟ أعرف أن الكثير من النساء رومانسيات واقعيات، وأن الرجل يميل للتجريد والإطلاق والتعميم والقسوة، ولكن ألا توافقينني أن المرأة في لا وعيها تتلهف على من يقهرها مهما كانت أدوات وأساليب ذلك؟

قد تقولين الواقع المحسوس غير ذلك تماما فمتى كنا ندرك الواقع بحواسنا فقط؟ لماذا تميل المرأة للعب بطولة التعامل الغامض؟

لعبة الجسد ثيمة لا واعية فلماذا نتقبلها بوعي؟ ألا تعطينا لذة آنية وشعورا مؤقتا بالكمال؟ أي سر في أن للعبة الجسد طاقة تتشكل فينا بعد لحظات من إشباعها خاصة إذا عجزت كثير من النساء على أن يمنحنك مثل هذا الشعور واستطاعت واحدة أن تفعل، وبذلك تتخلص من ميكانيكية التكرار، هل كنت بخيلا عليك بالكلمات كما تدعين أم ثبت لك كم أنني ثرثار؟ لا أريد الإطالة، لديك من المشاغل الكثير ولكن اسمحي لي أن أقف مع ملمح آخر، محاولتك الانتحار: هزني الخبر، كيف لامرأة مسكونة بالشعر والأمومة والدفء والوعي أن تقترف منكرا كهذا؟

هل هي حالة من تفاقم نفي الذات أم احتجاج أم استجابة لإدراك واع بظلم الواقع أم هي كل ذلك معا؟

شباكة (٦)

ما الذي تعرفونه عنها؟

لا تستجدي العطف، تحتاج نظرة ود. تقتات حزنها بصمت قاتل، من لا يعرفها لن يعرف المرأة. مخلوق لا ينسى، لا تني تهتف لفارس يأتي من وراء الغيم، تعيش لفكرة جميلة اسمها الحياة شرط أن تجد من يشاطرها حلمها، جمالها ساحق، لا تمتلك الأنامل كل ملامحه بل يتشربه الإحساس ويتغلغل في ثنايا الروح، تكبر في داخلك ولن تستطيع نساء المعمورة أن تحذف بهجتها، مستحيلة كأمنية، هادئة كملاك، تأتيك كطيف جميل وتغادرك كآهة، أسطورة في أعطاف أنثى، لا تتجسد إلا داخل إطار الإحساس، ضعيفة حد القوة متماسكة حد الخواء. تلمح في عينيها الكبرياء لأول وهلة وما أن تمعن النظر حتى ترى أطياف انكسار بألوان قوس قزح، لماذا التقينا من بين عشرات الرجال والنساء، ما الذي جمع بيننا وكوّن لغتنا المشتركة. هل هي الأحزان التي تجمّلنا في عيون بعضنا؟

امرأة مختلفة، امرأة أخرى دفعتني للوقوف أمام ذاتي بصدق، انسفت طائعا لكشف مواجعي والتخفيف عني، مما بيننا شيء كبير ليس له اسم.

تهرب من مواجهة متاعبها بالعمل والعلاقات، بالحركة الدءوب، الركود يساوي عندها الموت والانتظار محرقة العمر، صديقها الحميم هو الليل والمهدئات والشراب وألواح الشيكولا، تقول: أرجوك، لا تغر منهم، هؤلاء هم أحبتي إذا ما جن الليل، تسهر مع أطياف من مروا على عمرها ونكتوا على قلبها، صريعة ذكريات ممضة آنا وسعيدة آونة وحزينة في أغلب الأحيان، عاشت معهم وبهم أفاويق من عمر ولّى ولحظات عاشوها جميعا أيام العز وأيام الضياع والغربة والشتات، متماسكة لا تعرف البكاء، تحالفت مع دموعها ألا تفيض إلا خالية، راودتها أفكار جهنمية كثيرة أقلها الانتحار، كان قرارها صائبا إذ اتخذت موقفا من الحياة ولا شيء يستحق، فخذها بلا منغصات وانتهب ما تقع عليه يديك من لحظات، يأسرها الفقد وتجرحها الوحدة، تحب دائما أن تظل قريبة ممن تحب، هل هو الخوف من مجهول؟ هل لا زالت رغم كل حالات البوح والكشف تخبئ سرا؟ ما الذي تفعله بي هذه المرأة؟

شباكة (٧)

تختفي وتتركني فريسة للقلق؟ ما تعرفه عني لا يعرفه أحد غيرك... لست نادمة. جئتك بكل اندفاعي وجنوني وحيرتي. منحتك ما لا يمكن أن تمنحه امرأة. أريدك أن تظل بجانبي. أستأنس بصوتك. تظللني بسمتك وأتيه أمام الخلق بالسير إلى جانبك. وحدك تعرف سري فلا تمكن الموت أن يتسلل إليّ في غفلة. هل أطمع أن أعيش قربك ما بقي لي من عمر؟ كن معي. قاسيت الكثير وكذلك أنت. رغم الكبرياء الجريحة التي نختبئ خلفها لنعوّض ما فاتنا بلحظات نسرقها من الزمن.

أنت من يفهم حزني ويأخذني بعيدا عن متاعبي. متآلفان فوق ما هو عادي. غريبان عن أقرب الناس. أصبحنا نستوعب مشاعر بعضنا من طبقة أصواتنا. أنت آخر خندق يحميني. أدرك رغم أننا لم نشرح مآسينا بتفصيل أن الأحزان هي التي جمعتنا.

شباكة (٨)

أيتها النخلة....

يا من تطاولين الوجدان كحلم، أرى فيك صورة المستحيل، أتشرّب كبرياءك، صوتك، صورتك التي تتنافى في الخيال والوجدان، يغرقني غموضك الآسر وحجابك المستبد، ياسمينتي : هل تسعف الأيام ونوظف دراستك في فيلم يوثق فرحنا؟

ألغيت من ذهني حقيقة أن النساء سيجار مشتعل لا نلتذ به إلا وهو يحترق، تأسرني الهالة التي تلف جسدك، تأخذني خطواتك الواثقة والحدود الفاصلة في تعاملك مع من حولك، حساسيتك، هروبك كحلم، معك حذفت الكثير من قناعاتي ومحوت الكثير من معادلاتي الخاطئة، أصبحت أدرك عمق المعنى في أننا خلقنا لنعيش الحياة رغم مرارتها، أنت من مسح دمعي وقال: لا أستحق دمعك!!

مكانك حيث تعرفين! أحببت بعمق الفيلسوف وخبرة المرأة التي عركتها الحياة من واقع معرفتها بنفسها وبغيرها.

شباكة (٩)

مهرة لا تعرف المستحيل تخوض في أعمال الرجال بلا خوف. على استعداد أن تقارع طابورا منهم دون أن يرف لها جفن أو يطأ أحدهم لها طرفا. حادة كسيف. كلماتها منتقاة وتصرفاتها محكومة بتوازن. عندما تخلو إليه ترف كنسمة وتحلق مثل عصفور وتتضوع كوردة وتلبس مسوح عاشقة من ليالي ألف ليلة. ياسمين! أيها الطيف الذي فصل كينونتي. أعرف أن بداخلك الكثير مما تغلقين عليه أبواب كتمانك. ستظلين لي محطة ليس من السهولة مغادرتها. سأحملك في عمري قدرا. استثنائية أنت فهل يوجد عاشقة تحنو على زوجة حبيبها وترفق قلب حبيبها تجاه أهله؟ تعلمت منك كيف يتسع الحب للجميع وكيف نقمع أنانيتنا. وأن أبسط حقوقنا أن نجد ابتسامة في الحياة وقلبا يشاركنا النبض بأوجاعنا.

تسافر عيوني في ملامحك. تبتسمين عندما تقفين أمام حقيقة تشبعينها تبسيطا لتصير سهلة المعايشة. قلت

-: الحياة يجب أن نستنجد بها لنتخلص منها. ثلاث صيدليات يمكننا أن نداوي منها أوجاعنا الكتاب والمرأة وال..... لا تغرق في بحري. إن رحلت فالنساء كثيرات.

ألح عليك بتعليل السلوك فتضحكين:لن تصل لقرار. أرح نفسك.

كلما تعمقت فيّ تزدد جهلا, صدقني, أعرف أن هذا لا يريحك لكنها الحقيقة. ألم نتفق منذ البداية أن تعاملني مجنونة ليس من اليسير الوصول لنهاياتها, أنا لست أنا, نحن لسنا نحن, تعامل معي بتسلية مطلقة كقدر مطبق.

شباكة (١٠)

إذا أردت معرفتي فاقرئي زوربا بطل كازانتزاكيس وحسنين بطل بداية ونهاية وكمال عبد الجواد بطل الثلاثية وأحمد عاكف بطل خان الخليلي. تعرفي على هاملت شكسبير وسعيد مهران اللص والكلاب وعيسى في السمان والخريف وصابر في الطريق فأين أجدك أنا؟ أفي حميدة زقاق المدق أم في شخصيتي إلهام وكريمة في رواية الطريق. أم شخصية نور في اللص والكلاب أم في شخصية بنت مجذوب وإزابيلا في رواية موسم الهجرة إلى الشمال؟

شباكة (١١)

تستكثر عليّ أن أفيق من غيبوبتي وأعيش ما تبقى لي من عمر في هناء وراحة بعد أن أضعت العمر- أو كدت - راكضا خلف وهم كاذب. ما جدوى الحصول على المال أمام تغوّل الأسعار وارتفاع تكاليف الحياة؟ زوجتي ما زالت تعيش الماضي وترفض أن تستوعب أن الحياة تغيرت.

بماذا يفضلني أصحاب العوائل الخمسين الذين روجت أسماءهم الصحف كأغنياء الصف الأول. لماذا لا أكون واحدا منهم؟ ما الذي ينقصني؟ ياسمين لا تريد أن تصحو على الواقع وترى نيران أثمان وأجور الشقق. نحن في زمن الفهلوة والصفقات ومعرفة من أين تؤكل الكتف. ياسمين تغلق عينيها عن حقائق تسطع كأشعة الشمس كتوقف أبناء عمومتها عن زيارتها لأنهم حسب أقوال نسائهم ليسوا من مستوانا بعد أن طلقوا الفقر وسكنوا أحياء الثراء. لا تريد أن تفهم الفارق الظاهري بين سلوك بوش الأب والابن في السياسة، وبين سلوك أوباما الناعم الذي يضحك به على ذقوننا ونحن نصفق مبتهجين بتغير السياسة الأمريكية. ياسمين منشغلة دوما بهمومها الخاصة ولا تريد أن تعترف أن الدنيا والبلد تغيرتا. هي لا تقرأ الصحف عن الجريمة التي تزداد

والعصابات التي تتوالد وخلايا التطرف التي تتكاثر كالأميبا. ياسمين لا ترى أبعد من أنفها وترصد أثر الحالة العراقية والصومالية على البلد والناس والاقتصاد.

كانت تسألني كثيرا عن التدابر بين إخوتها وأبناء عمومتها وتتناسى الانقسامات الحادة بين أبناء الأسرة بسبب انتماءاتهم السياسي٠ة حتى باتت الأسرة نموذجا للضياع.

ترمقني بانشداه وأنا أكيل التهم لأقاربها وأولاد عمومتها المتطرفين واليساريين والقوميين وخاصة زوج أختها اليساري الذي يتفاخر بتخرج أولاده من أرقى جامعات أمريكا التي يشتم ليل نهار سياستها وحكومتها.

شباكة (١٢)

أسأل نفسي

:لماذا استوقفتني هذه العبارات التي انتقيتها من قراءاتي ولماذا أصر على أن أرسلها لها؟ ما هي الرسائل النفسية التي أحاول أن أوصلها عبر هذه المحاولات؟

أقف بعمق محاولا إيجاد إجابة مقنعة لكنني عندما أفشل أمعن في القراءة من جديد مكتفيا بالمزيد من الخطوط الحمراء تحت كل عبارة.

- قوة الحياة أننا في قبضتها

- الغيبوبة محاولة عرجاء لتبديد عمل واع تماما

- لا حاجة لأن تجد تفسيرات سيكولوجية معقدة لظاهرة قد تكون ذات أساس جسدي محض.

- العلاقة بين المحبين تقوم على الغرابة.

شباك الأوراق (١٣)

• على الشاطئ قريبا من الماء يزهر العشق. تهدأ النفس وتنجلي همومه. تذوب شوائبها ويصبح المرء أكثر شفافية.

• أقسى ما يواجهه الرجل أن ترفضه امرأة.

• أخاف من المجهول الذي يبزغ في نفسي منذ الطفولة. لا شيء أستطيع إدراكه أو تحديد ملامحه.

• أجمل ما في داخلي شخصيات متناقضة إحداها خائفة حذرة. تحسب خطواتها بدقة وتحاسب نفسها على كل تصرف. وأخرى مقهورة متمردة تسعى لتحقيق ما لا تملكه مهما اختلفت الوسائل. نزعة التمرد تتصارع في داخلي لكنني أقمعها ولا أترك مجالا للظهور لتظل الصراعات موارة في داخلي.

• وجدت من يمسح أحزاني ويجفف دمعي. وجدت معنى الابتسامة عندما تكون حقيقية. وجدته ووجدتني أضع بين يديه صفحات حياتي. بكل تلقائية أكلمه كأنما أبوح بأسراري لأقرب الناس لي. كانت البداية خمس كلمات في بريدي الإلكتروني. أصبحت روحي خفيفة. محلقة. لا تثقلها الهموم ولا تضغط على صدري صخور تكتم الأنفاس.

وجدتني أنزلق بين يديه. هل أخطأت؟ هل خنت من ارتبطت به بورقة شهد عليها اثنان؟ تتملكني حالة فزع قاتلة. شيء ما يتسرب لكينونتي. يمارس إقناعه عليّ فأستسلم. لم أخطئ. ماذا يعني أن يحب الإنسان بكل وجدانه؟ ماذا عليه عندما يجد نفسه أسير حالة لا يمكن وصفها؟ أين الخطأ في ذلك؟ أليس من الخطيئة أن ندفن أعمارنا مع جثث نمارس معها أمام الناس دور المحبين ونحن نخون مشاعرنا وأجسادنا بالتفكير بأولئك الذين يملكون أرواحنا ويملئون إحساسنا ووجداننا بكل ما هو نبيل؟

كيف ينتابنا شعور الإثم مع من نحب وأرواحنا وأجسادنا تدنس كل مساء مع من يختلفون معنا بكل شيء غير عقد في ورقة بهتت ألوانها وأصبحنا معهم غرباء بين جدران أربعة؟

• لصوته وقع آسر. مجرد سماعه يزيح عن كاهلي كوابيس القهر ويفتت صخور الهموم. ألهذا أدمنت صوته وأصبح حبة منومة لا بد منها قبل أن أغفو متوسدا ذراعيه في حلمي؟ فيروز أحد التقاطعات التي اجتمعنا حولها. لازمته التي يجرحني بها دون أن يدري (سألتك حبيبي لوين رايحين؟) هل يدري أنه يقتلني؟

لماذا يصر على تذكيري بها؟ هل يريدني أن أصحو من خيالاتي وأعود للواقع خادمة لواحد يقلق عتمة لياليّ الباردة بشخيره القاتل وأوامره التي تسجن تصرفاتي؟ هل يريدني ألا أغرق في الخيال ويذكرني بحقيقتي أنني مجرد هاربة لا تستطيع الفكاك من أسر الأولاد والزوج وقانون المجتمع

وفي الوقت نفسه لا أستطيع التقدم من متنفسي خطوة إيجابية واحدة لأظل اصطلي بنار الفجيعة والقلق؟ ماذا يقصد بالضبط؟ أخسر عمري لو أجد جوابا شافيا. هل يستكثر عليّ أن يخفق قلبي وتستأنس روحي لصوته وتنام يدي بين يديه؟ لا وجود للعقل في حالتي. إنه اختيار يتم بإحساسنا ووجداننا فقط. شيء من اختصاص القلب الذي لا يعترف بمنطق في الكثير من الأحيان.

هل اقتربت منه لأنني وجدت فيه الفارس الحلم؟ شيء ما يدفع بي نحو المجهول. لكنني أعاود التفكير في ماضيّ أقلب أوراق الحياة التي أصبحت في مهب الريح.

أسأل نفسي بمرارة : ما الذي أصابني لحظة أن وافقت! هل هو الاندفاع الكبير الذي أبداه أم ضخامة المهر الذي عرضه وأصبح فيما بعد حبل مشنقتي؟ فتاة العشرين يزغلل عينيها بريق المال فتقبل زوجا لا تعرف عنه غير جيب منتفخ. هل هو الغرور الذي دفعني للموافقة لتأكيد أنوثتي التي طمستها دراستي أم تمت موافقتي خروجا من إحراج قد يواجه أهلي بعد أن تقدم لي زملائي ورفضتهم فظن أهلي بي الظنون؟ هل من تقدم بفلوسه الكثيرة يحبني؟ كيف وهو لا يعرفني؟ هل يعقل أن يتم بيعي في بحر أسبوع؟ من المسؤول عما آل إليه الحال ومن أوصلني لهذا الدرك؟ هربت من مواجهة ذاتي ونمت على خيالات مؤجلة. ظننت أن الأيام ستمدني بحل وما دريت أن الهروب يضاعف المشكلات. كنت أنثى بلا خبرات أمام رجل يحمل على كتفيه عشرات التجارب. كانت شرخا

أول في صفحات كتابي. ألم أقل إنني امرأة اللعنات؟ كان عليه أن يقترب أكثر ويعوضني ما فات. يأخذني نحو عوالم الرجل أجهل أبجدياتها. الصفعة كانت أكبر عندما قرر الرحيل راكضا وراء الريال. غير آبه بمشاعر زوجة ضمت إلى ممتلكاته. لم تر منه غير ساعات لم تستطع خلالها أن تدخل قاموس النساء فعضت على جرحها الذي لم يطلع عليه أحد. وتعلمت من تجربتها درسا في المراوغة والرضى بالحال والانحناء أمام العاصفة ومواجهة المحيط بما يريد حتى لو كان زائفا. هكذا دربت نفسي على مداواة جرحي ولملمة عذابات أحتفظ بها لنفسي محاولة اجتراح فلسفة للعيش بأكثر من قناع لتنبت في داخلي مشاعر غريبة بدأت تجد لها ألفة في حياتي. استسلمت لقدري ونسيت مطالبي كامرأة ترسبت في أعماقها حالة الرضى بالحال الذي لم تسعفني دموعي في التنفيس عنه مكتفية باحتضان انكساراتي. السؤال الذي يصفعني دائما: لماذا لا يحس بي؟ ألا يدرك عمق الفارق وقصر المدة؟ لماذا يكلل زواجنا بالرحيل دون أن يحاول تعويضي ولو بمجاملة كاذبة؟ أم أن عمله الوظيفي قد انعكس على حياتنا فلم يجد غير القسوة وفرض الأمر وعدم قبول وجهة النظر الأخرى؟

موات يلف ما حولي. لا دفء. لا مشاعر حميمة لا صوت يؤنس وحشتي!! أحس بتساقط أوراق العمر ملفوفة بالحسرات! إلى متى أقبل بهذا الدور السالب وأحيا في الظل؟ الذاكرة أمنية مستحيلة. مرضي الذي لا يعرف عنه حتى والدتي لا يترك لي فسحة للنوم. أظل يقظة حتى أقهر جسدي بالحبوب فلا تتركني أواجه الإعصار وحدي...

شباكها (١٤)

صوتك نهر من الهمسات

شيء ما يشدني إليك

ربما ابتسامتك الثائرة

ربما عيناك وقد تكون روحك التي انتقلت إلى جسدي، أتمنى أن نبقى أصدقاء، أعنيها هذه الكلمة، فهي أعمق وأكثر فضاء من تلك التي تريد. أتمنى أن نظل أصدقاء إلى أبدي، نعم أبدي، أعرف أنني راحلة، إن لم يكن اليوم فغدا فالمسألة مسألة وقت وانتظار، تفهمني بالتأكيد وتعرف حقيقة وضعي، أنت الوحيد الذي أستأمنه على سري الصحي الذي لا يعرفه أحد غيرك.

إنها العاصفة، أسمى ما في الوجود

مررت على محطات النجاح والثراء والمركز الوظيفي لكنها هي التي منحتني معنى وجودي وهي التي وصلت أعماقي ودواخلي بلا مسميات. تسللت نسماتها إلى قلبي، كبرت مع الأيام كحلم أو وردة جورية تغفو على جدار يدي، تطرق شغاف القلب بلا مقدمات، دونما اعتبار لعمر تتحول لطاقة سرية سحرية تدفعنا بلا شعور أو إرادة لدروب لا نعرفها.

تتحول في حنايانا كتلا من ضياء، شحنات كهرباء تولد فينا إحساسات جميلة ورغائب دفينة لذيذة. قرأنا عنها الكثير عايشناها على شفاه أصدقاء لنا، رأيناها مرتسمة على الوجنات الضاحكة التي يملؤها البشر لكنها معنا تصبح بطعم مختلف ومذاق خاص.

تلك العاصفة التي أتمنى أن تهب على قلوب الجميع، هي التي لونت الأشياء وجملتها في عينّي، وهي التي فتحت شبابيك الروح على معان كانت نائمة هناك. وهي التي حفزتني أن أكشف سطور حياتي أيضا.

شباكة (١٥)

غاب وجه أمي الذي كنت ألجأ إليه كلما عصفت بي المحن! وجه أمي، الحقيقة الباقية التي أغمض عليها جفوني لحظة ما قبل النوم بهناء وارتياح.

لماذا يستبيحني من حولي؟ هل انطلاقي على بديهتي وصدقي وتلقائيتي هي السبب؟ مستباحة أنا بدءا من تلك اللحظة الغائرة في عتمة الذات منذ أن وعيت على جرح الجسد. تلك كانت الشرارة. كاذبة من تدعي غير ذلك نحن معاشر النساء. نكابر وننسى ونتلهى بصغائرنا.

أما ذلك الثور الذي قضى خمسة عشر عاما يستبيحني بورقة فله شأن آخر. ظل يصفعني بأوامره ويسلقني بنظراته ويتفحصني بحاسة شمه بحثا عن مريب قد يجده ويشنقني بعزفه الذي يتطاول مع هدوء الليل. حتى يطيّر مشاريع النوم من جسمي المكدود ونفسي المحطمة.

هربت إلى التي أضحت رفيق وحشتي في سريري الذي تعود البرد والفقد وأصبح يشاركني لوعتي أطفالي هم الآخرون ينصبون لي مشانق بالنظرات والتعليقات إذا ما تأخرت أو تقاعست عن خدمة يجب أن تكون في عرفهم جاهزة. هل ورثوا صلف والدهم؟ حتى في العمل

أجدني مستباحة من صاحب العمل الذي لا يمنحني راتبي إلا متأخرا. هربت من حالة الاستباحة إلى الحبوب. والدموع التي تأبى الظهور أمام أحد. أسحها غزيرة في وحدتي وأمام مرآتي. أجد لها سحرا عند تخليصي من الألم وتبعث داخلي وهج طمأنينة تتملكني فجأة.

شعارات كثيرة رفعتها أهمها أننا كي نعيش فلا بد أن نتناسى من يسيئون لنا. قالت أختي الكبرى

: لماذا لا تخلعينه كبغل؟ أكدت لها أن الرجل الذي تدمره امرأة لا بد أن يجد علاجه عند أخرى. فالمرأة تظل الخاسرة على الدوام ولذلك أقنع بدوري راضية. ترد أختي إنني قاسية في علاقتي بنفسي وزوجي والآخر فأرد عليها. لا عليك أنت. دعيني أواجه مصيري بغيبوبتي.

شباكها (١٦)

كثيرون تناوبوا على العمل في تنظيف حينا فلماذا ارتحت له تحديدا؟

هل لأنه يذكّرني بأخي أم لأن صوته يعود بي إلى تلك الأيام؟

نظرته مختلفة عن نظرات الرجال. ليس فيها إحساس الرجل بالأنثى أبدا. في نظراته سمو وترّفع. وفي حديثه وعي أكبر من مجرد عامل نظافة. سأطلب من ابني أن يستضيفه على فنجان قهوة فقد يعرض بعض ما لديه. ماذا سيكون رد زوجي الذي تحرقه الغيرة الغبية العمياء؟ هل يستوعب ويتقبل الأمر بأريحية أم سيثور كعادته ويقلبها حرب داحس والغبراء؟

ربما أمثل له جزءا من ماض يستذكره برؤيتي. أليس من الممكن أنه رأى فيّ ملامح امرأة كانت جزءا من ماضيه في وقت ما؟ نحن النساء تأسرنا الحكايات ولا بد من وسيلة أقف بها على سر هذا الرجل! أليس كل واحد فينا بئر من الأسرار؟

شباك اليوميات (١٧)

- الأحد

لم أذهب لعملي، متعبة جدا، أتخيل زوجي فيغشاني شعور بالفقد والضياع. يحتلني صمت وكآبة لا حدود لها. ماذا يحدث لنا؟ فوضى، تشتت، غربة تقتاتني، هل أذهب لصديقي وأجد عنده العزاء؟

- الاثنين

متوترة طيلة يومي. لم أجد نفسي في العمل ولا مع الزملاء. صديقي يمطرني بتساؤلاته ملحا عليّ بالنزول. زوجي يرمقني بنظرات شك. الأولاد يتهامسون. هل تسرب اضطرابي لهم فاكتشفوا حقيقتي؟ كم أتعذب.

- الثلاثاء

تموج الجزيرة بأخبار الصباح، صور ومراسلون وعويل يصل عنان السماء. ذهول يكفن وجوه الناس، لم يصدق أحد سرعة الانهيار. تساؤلات مرة جارحة تلفظها الألسنة والملامح الغاضبة. يعصف الوجع بالجميع. تهاتفني أختي، لا أسمع غير وشوشات، ارتفع زعيقها بلا فائدة. أغلقت الخط ولذت بقهري ودموعي ويتمي.

- الأربعاء

المطر يضرب النافذة. صوت الريح يعوي في ذلك الوادي العميق. أتوحد بالمطر. أحلم أن يأتي ونسير معا. يطوقني ونغيب فيما يطهرنا.

- الخميس

وجع الروح أعمق بكثير من جراح الجسد الذي بقيت عليه الكدمات أكثر من أسبوع. ما الوحشية التي يقترفها زوجي؟ لا أفهم لماذا يكون قاسيا حتى في مفرداته حتى وهو في السرير. أعذره بالطبع. فظروف البلد ووضعنا الأسري يشفع له. عليّ بالصبر وانتظار صديقي كي أنسى العالم وأتجاوز سيئات ثوري الهائج. من أجل عينيك أتحمل قسوة العالم أيها الصديق!

- الجمعة

هذا يوم لم الشمل والتقاط الأنفاس والإحساس بالحميمية الأسرية مع الأولاد. لكن الجو العام يشحن الجميع بالترقب ويكسو ملامحهم بالتوتر والغضب. اغترب كل منا عمن حوله ولجأ لهواجسه وذكرياته. اغتربت البيوت عن ساكنيها والشوارع عن سالكيها. الأبواب موصدة كأننا في حالة منع تجول ذاتي . يخرجني صوت صديقي من عزلتي. أغفو على همساته وتوقظني نغمات هاتفه عندما يشدو بصباح الياسمين.

- السبت

كيف وصل بنا الحال إلى هذا المدى؟

هل كنا في حلم وصحونا على الفاجعة؟ وصل التردي درجة أن نجد على باب البيت أمرا يطالبنا بالمغادرة. هذا الصباح بقيت في سريري تشلني حالة خدر شامل. هل هذا من بقايا حبوب يوم أمس؟

أمضي الصباح باكية على الحالة المائلة والأولاد التائهين بين قطبين لا يتفهم أحدهما الآخر.

- الأحد

عذاب أن يجتمع عليك الخوف وذل الحال والشعور بفقدان الأمن. أحترق بين رجلين يجمعني بالأول عهد وأوراق وشهود وعيون جيران تتلصص وآذان ترهف السمع لصراخنا الذي تعودناه وتعودنا. ويقسمني الآخر على لحظات وجد تنتشلني من بئر حرماني وتضع البلسم على جراح روحي وجسدي.

الشارع مزروع بآذان ترصد الأنفاس. تهرب الطمأنينة. تتسع الخطى في منافي الذات. فتشت اليوم عن شيء أشتري به غداء فلم أجد. أين تجد صوتك في معترك لا مكان فيه لغير الرصاص والدم والخيانة وشراء الضمائر؟

- الاثنين

لوّن الشحوب تضاريس وجهي وودعني النوم. ثلاثة أيام لم يزرني خيط نعاس لأتصل به. ما يمنحني من حبيبات أجد فيها جنتي الضائعة. هل كل المحبين يجدون ما أجد؟

لا همّ لبعض الفضائيات غير تشويه دواخلنا بالمزيد من الدمار والدماء والقتل الذي يتفننون في عرضه. أغلقوا مصادر تسميمنا وتلويثنا يكفينا ما نلاقي صباح مساء. فقدت شهيتي لعمل أي شيء. أحلامي مشرعة على انتظار نهاية تخلصني من هذا الكابوس.

- الثلاثاء

ثوري الهائج بات شديد الانفعال لأتفه سبب. يلوذ بصمته ساعات لا تتحرك منه غير عينيه اللتين تدوران في محجريهما بمعاني الشك والقهر الذي يجد له متنفسا بضربي. أتابع سهومه وملاحقته لذكريات غائرة في البعيد وخيبات تجمعت في صدره ليس أقلها هذه الزوجة التي تغرد خارج سربه ولا يلتقي معها إلا حول المائدة.

- الأربعاء

الكاميرا تسجل ما يرسمه الذهول على الوجوه والعيون الزائغة. لا صوت غير الترقب وكتم الأنفاس ورايات بيض ترفرف فوق رؤوس الجنود والأسرى. فرغت المحلات إلا من تجمعات متحلقة أمام شاشات التلفزة وعدسات التصوير ترسم الفاجعة وتسجل الصراخ المنفلت الذي طغى على خواطر النفس إلى ما لا يمكن تخيله. زعيق الجنون هو الحقيقة الباقية..بالكيماوي يا.........أرتال تشتعل. دوي انفجارات يتعالى ودخان يصعد محتجا يحجب وهج الشمس. مقولات كثيرة تسمعها: حرية... سقوط.....ورود. أين نحن من كل هذه الفوضى وهذا الضياع؟

شباك الطبيب (١٨)

راجعتني ياسمين في أوقات متباعدة. قولونها الذي تشتكي منه عائد لسبب نفسي، أحلتها على زميلي المختص بهذا النوع من العلاج. إلا أنه وبعد أكثر من جلسة أكد عدم وجود علاقة بقولونها بأي عارض نفسي، اضطرني الأمر لإعادة المتابعة بطريقة أكثر تركيزا. باقترابي منها أكثر أشعرتها أنها بالنسبة لي أكثر من حالة مرضية ولأسباب كثيرة وجدتها فيها ولأنها هي الأخرى وجدت في شخصي أكثر من مجرد طبيب.

أنصت لها باهتمام، تركت لها الحرية لتحكي ما تريد حتى طلبت من سكرتيرتي الاعتذار من الزبائن الذين قدموا متأخرين كي أتفرغ لياسمين.

دواء ياسمين أنها تحب الكلام ومن يسمع لها باهتمام. توصلت معها إلى أنّ وراء هذا الاتزان المتقن والشخصية المعتدة هشاشة عاطفية وقلق نفسي عميق نتيجة تباعد وجهتي النظر بينها وبين زوجها حتى أنني هربت من حالتها للإدمان الذي سبّب لها حالة القولون التحسسي ذي الأعراض الكثيرة كالتقيؤ، والتحسس من الروائح والتوتر الشديد.

شباكها (١٩)

انتبهت في حياتي معه لأشياء كثيرة أهمها حساسيته القاتلة وارتباكه عند محاولة اقترابي من ملابسه. لم يكن يرتاح أبدا أن أقلب جيوبه قبل غسلها. طار ذهني إلى الخيانة بداية الأمر. ظننت أن له علاقات ربما تترك آثارها على ملابسه هنا أو هناك. لكن......مفاجأتي كانت عندما وقعت يوما على بطاقتين شخصيتين له ومن دولتين مختلفتين. رجعت بي الذاكرة لماضينا البعيد. تذكرت تلفيقه لتبرير حكاية الثروة التي نزلت علينا فجأة وانتقاله من العيش في حي معدم إلى شقة نظيفة في أكثر الأحياء رقيا. ومن المرمطة في الركض وراء المواصلات العمومية إلى التمتع بالسيارة الأمريكية الفارهة!

تذكرت بداياته الأولى بوابا في الصحيفة التي لا يقرأها غير متابعي إعلاناتها ثم نزوله بالباراشوت لرئاسة التحرير. وأنا التي كنت أصحح له أغلاطه الإملائية وأكتب له مقالاته الافتتاحية عندما يُطلب منه ذلك. دار الهمس يومها بين نساء الحي وتغامزن أنّ أزواجهن يعرفون المتنفذ الذي أخذ بيد زوجي. ما لم أستوعبه لحظتها. المقابل الذي يقدمه زوجي لقاء هذا المنصب. هناك خطوات تمت قبل ذلك كقبوله في جمعية الصحفيين لكن الحرج أن اللغط والغمز طال ماضي زوجي مذ

كان طالبا وكانت شبهات تدور حول أخلاقياته. حاولت جاهدة تناسي الأمر والتغاضي. غير أن تصرفاته الغريبة معي أحيت تلك الشكوك في وجداني من جديد.

عثوري على أوراق باهتة وأنا أبحث عن صورة عقد زواجنا أضاءت الكثير من الغوامض في حياة زوجي. كارتباطه بتنظيم سياسي وعلاقاته المباشرة والمميزة مع الرئيس رغم فارق العمر بينهما.

ظللت أتباهى بين الجارات أن زوجي من زلم (أبو عليان) وهو الذي يقف خلفه في نجاحاته كلها لكن (أبو عليان) ترك منصبه ونسيه الناس ولم يعد مؤثرا في الوقت الذي ظلت الأحوال تبتسم لزوجي والأمور سمن على عسل.

القصاصة التي رأيتها أخيرا أكدت شكوكي عندما قرأت أن مكتب جريدة لدولة غنية سيفتح هنا وسيتولى زوجي مسؤولية المكتب المباشرة غطاء لاتصاله بالسفارة.

بدأت علاقتنا تبهت وحرارة رباطنا تتلاشى والغريب أنه في كل مرة أحاول أن أقترب منه كزوجة يلاقيها بصدود ومحاولات مكشوفة للهرب خاصة عندما يستشعر بإحساس خاص لديه محاولتي لتوجيه سؤال ظل عالقا على طرف لساني.

شباكها (٢٠)

تجهدني رسائله كما حواراته. يظل يتوارى خلف التلغيز وعدم وضوح الفكرة كأنما يخدر ذكائي ويترك لي فسحة لكشف وعيي وعمق تفكيره. لماذا يرسل تلك العبارات تحديدا؟

أتعبني البحث والتنقيب عن مصادرها. أعرف أن قراءاته متشعبة لكن : لماذا لم يذكر لي مرجعها ويوصيني بالعودة لأصل الكتاب؟ أم أنه يكتبها ويدعي نقلها؟ سألعب نفس لعبته ربما أستطيع اكتشاف أي جديد. هل سيلح على مصادري أم يضيع بين الكتب ولا يخرج بشيء!!

ما معنى أن تعطي الحرية لرجل يحمل في داخله سجون العالم؟ تفحصت الوجوه فلم أجد شيئا يشبهني. أين وجه أمي. ما أسخف الرجل إذا سكنته امرأة. الحب الصادق يولد الثقة العمياء.

شباك السارد (٢١)

لماذا أهرب لصديقي رافع وأضع بين يديه كل ما يحدث لي؟

أسراري وأوراقي التي أبخل بها على أقرب المقربين أجدني أقدمها له بارتياح. لماذا أجد راحتي وأنا أعرّي له نفسي؟

شباك بواب العمارة (٢٢)

لياسمين تصرفات مربكة ومحيرة رغم ما يبدو عليها من عقلانية واتزان. كنت أشاهدها تخرج في عز فصل الشتاء والبرد القارس والناس يركضون لبيوتهم هاربين من زخات المطر، كانت تسير بهدوء كأنما تنتظر رسائل قادمة من السماء، لماذا تفعل ذلك؟

هل هي مصابة بجنون ما حتى تقوم بهذه الحركات؟

شباك الطبيب (٢٣)

استوقفني خلال زيارات ياسمين لعيادتي من بين أحاديثها حبها للسير تحت المطر. قالت : إن حالة غريبة وإحساسا لا تستطيع تحديده ينتابها عندما تفعل ذلك. خاصة عندما تنبعث رائحة تراب الأرض بعد سقوط الأمطار أول مرة. ينقلها ذلك لحالة وجد يغسلها ويطهرها كوردة طاهرة بيضاء تعود لها روحها وتوازنها وتصبح أكثر رضى عن حالها.

شباكها (٢٤)

أعي خطورة ما أقدم عليه من مبالغة في الإقبال على المسكنات. لا أريد أن أبرر. لكنني أمام تناقضات كثيرة لم أجد إلا هذا النوع من الرفض والهرب مع أنني كنت أحاول التخفيف من خطر الحبوب بتناول الميرندا والسفن أب وتناول بعض قطع الحلوى بكثافة.

شباكها (٢٥)

أي قناع يواري سرك المغروس في جنبيك؟ ثلج ونار أنت. تناقضاتك. أقنعتك. هروبك. تقواك. فلسفتك. صوفيتك. إدمانك... أي برد عاطفي يجتاحك وأي قشعريرة قلق تخرق لياليك!! تعجبين من حولك بكتلة التناقضات فيك. يحسبونها عوامل جذب تنتحلها الأنثى لصيد الرجل. ما دروا أنك بذلك تخترقين كل لحظة. أجلس أمام الشرفة. أستحضر الماضي القريب والبعيد. أجد البدايات تساوت مع نهاياتها.

أحزن فلا يهزمني حزني. من كان يظن أنني سأقف أمامك بهذا الثبات وأنت الذي كنت تصبرني وترفع من عزمتي المنهارة. عشر سنوات. أخفيت فيها الكثير من أسراري. ألبس الأقنعة. زوجة أمامك وأما أمام الأطفال والجارات. زوجة محافظة. تماهيت في كذبتي حتى أدمنت الدور وبت لا أفرّق بين الواقع والخيال. بين المعاش والتمثيل. هل كنت مسكينا ساذجا وطفلا كبيرا مارست مقدرتي على تقمص الدور وتمثيله؟ أكنت تدري أن الورعة في ناظريك تستغل غيابك وتمارس كذبها على بائعة السوبر ماركت لإحضار طقوس الغياب الكامل عنك بحجة أنك من يدفعني لذلك تحت تهديد الضرب والطلاق؟

كنت تصدق لهفتي الكاذبة باستقبالك دامعة في المطار فرحة باللقاء, أقبلك لا أخشى من العيون التي تخرقني نظراتها وأنا في الواقع قد جئتك بسيارة صديقي, هل كنت تثق بي بشكل مطلق أم كنت تتغاضى لأن لك صديقات تقضي معهن لياليك فتغض الطرف عملا بقاعدة أننا في الهم شرق!!

سنوات عشر أمارس فيها عليك كذبتي, راعية بيت تحافظ على بيتها ونفسها, كنت إذا ما عدت من سفرك محملا بالمشاريب أمارس عليك دور الواعظ, لا يحلو لي الغياب إلا في سفرك, أتلذذ بالميرندا مع قطع الشوكولاتة, كنت تفرح عندما تراني منهمكة في تسابيح الفجر, أظنك تحتقر نفسك لحظتها عندما تقارن تقواي بضلالتك!!

من أين واتتني القدرة على الكتمان وعدم التصريح بعلاقتي بسالم وكراهيتي الغامضة لك والتي لا تظهرها ملامحي أو تصرفاتي, كنت أمعن في ارتداء أقنعتي إصرارا على التمثيل حتى كنت أقوم على نظافتك بنفسي, لكنني رغم إلحاحك الذليل كنت أرفض أن تدخل الحمام معي مثل أي زوجين, تلوذ لحظتها باستكانة كرهتني فيك أكثر عندما تنصاع لي, في تلك اللحظات تتبرعم كراهيتي لك أكثر فلا تسأل ولا تراجعني لماذا, وكيف لم تقارن رضاي برغبتي في تنظيفك من الداخل وإصراري على عدم دخولك الحمام معي, ألم يطرأ ببالك مجرد سؤال أو استفهام أو مجرد لماذا؟

سنوات عشر قضيتها طفلا صغيرا يغضب للأشياء الصغيرة, لم

تحظ ليلة فيها بإثبات رجولتك. كنت أمارس عليك دور الباحثة عن المتعة. كنت تتقبل الأمر باستسلام دون أن تصلك الرسالة التي أمعنت في إخفائها عنك بهذا السلوك.

أيها المسكين. كنت أمامك ومعك (إيناس) المخلصة دون أن تدري أنك تساكن واحدة من أربع إيناسات. تلبس كل واحدة منها لبوس يختلف باختلاف الزمان والمكان والمناسبة.

شباكها (٢٦)

عندما أفكر فيك تجتاحني الكلمات. لماذا تجمدت ذاكرتي عن ماضيّ بعد لقياك؟ قلت وأنت ترقب أثر كلماتك في نفسي. تأملت عينيك أبحث فيهما عني. شممت رائحة جسدك تحمله النسمات. تأملت يدك التي امتدت نحوي. شعرت بأنفاسي تضطرب. يداي ترتجفان. تمنيت لو أحتويك. اكتفيت بلمسة كفي. فتحت لك القلب دون الجميع. أناس نتمنى لقاهم. كلماتهم تفك أسرار صمتنا. قالت عيناك أشياء كثيرة قبل أن تذهب. متى يحل المساء لألقاك؟

مسكونة بالحديث معك. سماع صوتك والإبحار في عينيك. معك أجد حلمنا الذي ننسجه بأمنياتنا. شيء في داخلي كان ينتظرك ويتهيأ منذ ولدت بلقائك. لم أعرف قبل الآن أن البشر يمكن أن يحلقوا في فضاء السعادة. سعيدة أنا بمقدار طيشي وجنوني وبمقدار سحرك. أجد كل ما حولي سعيد. حتى لمبات الإضاءة غير النظيفة. أجدها تبتسم وتمدني بسعادتها. الحب روح الله. منحة تستحق الاحتفال بها. الياسمين وحده يعرف معنى الأشواق. صوت خرير الماء يغرق المكان. الوجوه تتلقى رذاذ الماء الذي تنشره النافورة الكبيرة. روحي تتساقط سعادة في بحيرة عينيك. سعادتي فرحة لجلوسي معك. كثيرة هي الأمنيات التي لا تجد

لها المناسب من الكلمات. وجهك لا ينسى. ملامحك لا تتكرر. لا تجعل التعب يسرق بعض نضارتك. من هو المؤلم أكثر: أن تجرح حبك أم تكتشف أنك تعشق من لا يملك إلا أن يكون جبانا؟ بك قهرت الأيام ومعك انبعث الشباب في ذاتي ودمي. الشباب عمر الحب. يبس عود الحياة في داخلي لولاك. معك أقتل وحدتي. بداخلي جيش من العشاق. تنام يدي في مهجع كفيك. تسكنني. دع أنوثتي تنتظر رجولتك. يستحيل على الكلمات وصف شعور الإنسان قبل اللقاء. الألم الحقيقي أن نتألم بصمت. يدهشني عشقك. هل الحب يمنح السعادة؟ نلوذ بصمتنا. أتمنى حضورك. ما نفع الكلمات في لحظة الرحيل عندما يتحول كل شيء إلى هباء!! تدوس عجلات المركبة التي حملتك عضلة القلب الذي سيظل منتظرا عودتك. علينا أن نبتسم ولو بقلب دام. أحتاج منك لحظات تشحن بطارية لهفتي. أريد سلاما مع ذاتي ومصالحة مع ذكرياتي. لا أرغب بوجه يعيد لي أحزاني. أي المشاعر تسكنني؟ أتراك أدركت بحدسك آلامي وجئت تخفف عني وتعطف علي وترثي لحالي؟ ألا تعلم أنني أرفض الشفقة حتى من أعشق؟ حسرة تفتك بي وأنا أسمع صرخات المرأة التي تستقبل وليدها. أجعل يدك مخدعا لقبلاتي. تأثر يسكن وجهك. أتأملك بما يتناسب وسنيّ انتظاري. ساعات ولا يعود. أفهم في لحظات ما لم يفهمه كثير في سنوات.

شباك بواب العمارة (٢٧)

هذه السيدة صورة ناطقة للعفة والاتزان والاحتشام. فرضت عليّ احترامها حتى صرت أغض النظر وأنا أكلمها. كنت أتخيل هالة ضياء تزين رأسها وهي تأتي من بعيد عبر الشارع الذي يخفق فوق بلاطه نعالها فيخرج إيقاعا بِتُّ أُمَيِّزُهُ من بين خطوات الكثيرين الذين يسكنون العمارة.

لكل منهم، ذكرا كان أم أنثى ملامحه الشخصية المميزة. لم ترفع عينيها في وجهي عندما تسأل عن شيء أو توجه طلبا. ما يقتلني حيرة أنني في المدة الأخيرة صرت الحظ رجلا بملابس بيضاء يسير جنبها لحظة أن تطل على العمارة من دخلة الشارع. تقرصني الغيرة عندما تذهب بي الشكوك بعيدا. حدثتني نفسي بأن أقول للناس. أشير لهم لهذه المرأة التي لا تخجل من اصطحاب غريب. كدت يوما أن أشير لهم بإصبعي نحو الغريب المرافق لكن الكارثة أن الرجل يختفي حالما يقترب من الباب. أين يذوب ويتلاشى؟ هل هُيئ لي يا ترى؟ ما الذي يجري من حولي؟ لا أجد خيانة. ألوذ بالصمت لتظل الحسرة والغيرة وجنون الشك تفترسني. خاصة عندما تعود من الشام من زياراتها المتكررة وتجلب لي هديتي من الحلوى التي يأسرني مذاقها. للآن لا أعرف لماذا تترك أولادها وزوجها

وتذهب وحيدة. صحيح أنها لا تطيل المكوث هناك أكثر من أسبوع، لكن لماذا تراودني الأفكار أنها تدير مصلحة تجارية لحسابها وتتابعها فهل هذا صحيح؟ أم أنها ترتبط بأجهزة عالمية وإقليمية لغايات سياسية واستخبارية لصالح جهة ما؟

شباك المؤلف (٢٨)

تراودني فكرة الكتابة، تلح عليّ. أنا الذي ساعدني معلمي وشجعني والدي على حب الكتاب. أكوام من الكتب قرأتها وعشرات القصص المترجمة طالعتها بأثمان زهيدة جدا كنا ندخرها وندلف فرحين مكتبة العم شاكر الذي كان يستقبلنا بغبطة وهو يمد يده المرتجفة لرفوف كتبه من روايات الجيب ومغامرات السندباد وترجمات المنفلوطي وروايات عبد الحليم عبد الله.

عالم روحاني لذيذ تأخذنا إليه الكتب. نهرب بها مع أبطالها لعوالم نائية في كهوف ما تحت الأرض أو طبقات البحار مما نقرأ في ألف ليلة وسيف بن ذي يزن.

كبرت معنا الحالة، أصبح مرأى كتب الطفولة حلما بعد أن انتقلنا لقراءة يحتاج معها المرء للتوقف وإعادة التفكير. ظل الخيال القصصي يحوم فوق رؤوسنا والأقرب إلينا والمعبّر عن فرحتنا.

وقفت مع نفسي متسائلا : بماذا يختلف أصحاب الكتب عنا ولماذا لا نكتب مثلهم؟ هل تنقصنا القراءة أم الإرادة أم المعاناة؟!

لماذا لا أشرع أنا؟ ما الذي ينقصني حتى أصبح في مصاف أولئك الكتّاب؟

هل فكرت فيم ستكون كتابتك؟ لتكن القصة القصيرة. هذا العالم الشفاف السريع الذي يختصر أكثر من نوع كتابي، لكن هذه لا تشبع الخيال والعوالم التي تطمح بالكتابة عنها والوصول لها. الرواية!! إنها ديوان العرب في العصر الحديث. تشرّق فيها وتغرّب أما القصة القصيرة فمحدودة الشخصيات والصفحات والأفكار.

عليك بالرواية التي لن تكلفك غير الإصغاء لوالدتك وجدتك وجارك لتدبج عشرات الروايات. نحن في عالم مأزوم وكل واحد منا له حكاية يعجز عنها الخيال.

ستفتح لك الأبواب وقد تقع روايتك بيد « نجدة أنزور» ويصنع منها عملا سينمائيا، وقد تترجم لأكثر من لغة وتنهال عليك عروض الترجمات والمقابلات وووو..وإذا قدر لها أن تترجم للغة حية فإنك بطبعة واحدة تعيش حياة الملوك وستستر ما بقي من عريك وتودع الوظيفة التي غرقت بوحلها. الرواية مدخلك لعالم رومانسي وفتح إبداعي سيكون خطوتك الأولى للعالمية. أنسيت نجيب محفوظ؟ عليك أن تختار فكرة غير مطروقة وأساليب سردية جديدة منوعة وقد قرأت خيري شلبي وفتحي غانم وغالب هلسا ومؤنس الرزاز وجمال أبو حمدان وعلي هصيص وحسين المناصرة وفؤاد التكرلي وعبد الستار ناصر وعشرات غيرهم عربا وعجما.

ارتحت لرواية الأصوات. هذا النوع غير المطروق كثيرا والسهل الممتنع في نفس الوقت. رواية الأصوات أقرب لنفسك و تناسب البعد الفكري

والقيم الجمالية، إضافة لكشفها عن خصوصية النص الروائي البنائي، وهي لا تؤمن من ثم بالقيم الثابتة ولا تؤكد عليها بل تضيء مجموعة من النبرات الصوتية المختلفة بين قيم ثابتة ومتحولة في المجتمع فلا تؤمن بالبطولة المطلقة ولا النهايات المحددة، ناهيك أنها تقمع المؤلف الذي يجعل من نفسه فهمان ويمارس الأستاذية على متلقيه. تعجبك رواية الأصوات لأنها تفرك في عين المؤلف بصلة وتقول له قف. بالفم المليان لأنه معتاد أن ينساق الجميع له مهما كان مغرورا، لا سلطة لمؤلف هنا بل السلطة في يد شهود العيان والأبطال الحقيقيين.

تمكنك رواية الأصوات من الانطلاق والحركة لمعالجة أكثر من شكل فني فتعلي من العمل الجماعي وتقلص الجهد الفردي. هل نسيت شيخك «دوستوفسكي» رائد هذه الرواية؟ عليك بها إذا فهي تقمع الصوت الواحد، أضعت عمرك مناديا باحترام وجهة النظر الأخرى والرأي الآخر ولا يخدم هذا التوجه إلا هي، عليك أن تلتفت للغة ولا تجعلها بنفس المستوى لكل الشخصيات بمراعاة التعددية اللغوية، ذلك يساعد في الإقناع، البداية صعبة نعم لكن مواجهتك «لمنصور ماهر» مع «ميرامار «ستحل جزءا من المشكلة وستدفع بك لتجاوز هناتك، سيأسرك «عامر وجدي» و»حسني علام». بهذا النمط الروائي ستوزع قناعاتك وأفكارك التي لن تستطيع المجاهرة بها عبر مقالاتك اليومية المباشرة وستقول مالا تجرؤ على قوله بين المحيطين، ستوزع أفكارك هنا وستحشو شخصياتك التي ستلدها بنات أفكارك بكل ما لديك تحت مسمى النص الفني ووجهات النظر ولن تعدم غدا أحد أدعياء النقد أن يتيه

متفاخرا أن هذا النص فتح جديد في الرواية. خاصة إذا ما تفوهت في مقابلة ترشو مقدمها من صحافيي الشنطة ببعض أسماء أجنبية تضع في روع من يقرؤك أنك تتقن أكثر من لغة وتتابع آخر النظريات الغربية.

هل تراك اقتنعت؟ عليك بالخطوة الأولى وبعدها ستكر حبات المسبحة وسيأتلق نصك على واجهات المكتبات وتصبح حديث الإعلام والفضائيات والملاحق الثقافية وصالونات الأدب. لا تتكاسل. حضّر أوراقك وابدأ خطوتك الأولى...

شباك عامل التنظيفات (٢٩)

. كيف انتهت بك الأيام؟ هل كنت تظن أن دورة الزمان ستكتمل وتخدمك الليالي بعد وصولك هذا الحي؟ من كان يخايله التفكير أن رافعا ستؤول أيامه تحت ظل جدار، تنتهكه العيون وتزدري لباسه ويعقد هدنة مع عربة مكدسة بالقمامة؟

تقتحمك أعين النساء وضحكات الصبايا وزعيق الأطفال... ينظرون إليك فقيرا يستحق الشفقة. يتغامزون أيام العيد. يدسّون في جيبك دنانيرهم فتقبلها مكرها بضغط الحاجة. كم هو خؤون عمرك يا رافع. كنت المسؤول عن قاصة العقيد وأموال التنظيم. منظر الملايين لم يثر فيك شعور الخيانة أيام كان يبول على نفسه من تعتعة السكر وظل المبدأ راية ترفرف أمام عينيك ترتفع فوق كل الصغارات التي حاولوا ترتيبها لك.

كم مرة دخلت الحمام برفقته. تثبته في البانيو وتمنعه من السقوط؟ أشار عليك بأخذ ما تحتاج؟ ما دريت أن الليالي ستخسف أقمارها وتتقاذفك الأيام كرة على الأبواب. عامل أحذية ونادل مقهى وعامل يجمع قمامة الموسرين. تنبشها مستخلصا ما قد يفيد في سد ثغرات حياتك

المثقوبة!! لاحت فرصتك. وواتت الرياح مركبك ووقفت على خطوة من الثراء لو نزعت عنك لثام الوعي ومخافة الله وهبشت كما هبشوا!

كنت بالتأكيد مالكا لواحدة من هذه الفلل. حديقة غناء وسائق مطيع وخادمة ترطن ثلاث لغات. لكن الحمد لله أن ضميرك ما زال حيا ويعرف الحد الفاصل والواضح بين لقمة الحلال وقرش الحرام.

أي الوظائف عمل أصحابها حتى جمعوا أثمانها؟؟ لماذا لا تكون فرص قد واتتهم كما واتتك وفعلوا ما لم تفعل. أدرت ظهرك. تذكرت الذين خسروا أعمارهم وباعوا حاضرهم ومستقبلهم وركبتك عزة نفس ولفحتك نسمة ضمير وخوف من الله!لم تسأل نفسك أين ذهبت الحبوب التي صعقك منظرها ومن الذي أثرى بالاستيلاء عليها؟ وما مصير السلاح الذي كان غطاء للتهريب؟

ما زال سور السجن الكبير شاهدا. ولعل ذلك الرقيب الذي سهّل لك المهمة ما زال يتنفس هواء العيش. ولا زلت تذكر شجاعتك عندما التهمت كمية مخدر تصرع ثورا حتى لا تحسّ بأي عارض..

لا تذهب بعيدا. دعك من الماضي الذي تناسلت أوراقه. أنت ابن اليوم. عامل التنظيفات الذي لم يطلع على صفحاته أحد. حتى أمك التي تعرف كل التفاصيل واريتها القبر ودفنت سرك معها.

يجرفك حنين لماضيك رغم أيامك المرة. لا تريد العودة لهذا الحاضر الذي تتجاوزه دائما بحالة من الخدر تنسيك واقعك المر بابتلاع رفيق دربك ومؤنس لياليك. لماذا تحسّ بدفء خاص عندما تدخل هذا الشارع؟

لماذا تتملكك حالة انتشاء لا تحسها في غير هذا المكان؟ هل الحنين لأبوّة ضاعت في تضاعيف سنيّ الشقاء والنضال الكاذب أم أن الارتياح لذلك الطفل الملاك الذي ترى نفسك فيه؟

كل البيوت ترى فيك عاملا مخلصا وأنت تضغط على جراح روحك و تدق أجراس بواباتهم مطالبا بالقمامة! كم أنت متواضع، هذا ما يرصده فيك أهل المنطقة الذين يرونك مثالا متحركا للإخلاص، لكن قشعريرة من مذاق حارق تجتاح جلدك وأنت تضغط جرس باب حوشها، هل تدري لماذا ربطت بينها وبين الياسمينة التي يفوح عبيرها كلما هبت نسمة هواء عليل؟ ولماذا أسميتها ياسمين؟ لم يبد على المرأة نحوك غير التقدير والعطف، في نفسك تتجاوز مجرد امرأة، لا تتحفظ بالحديث معك كجاراتها، تمد يدها لك ببعض المتوفر حتى لو كان كوب ماء بارد. تنظر إليها بلا انكسار كما تفعل مع غيرها، تستشعر فيها أكثر من امرأة، تراها مجموعة نساء بخصوصية تفتقدها الأخريات، طاقة روحية تكشف خباياك وتقرأ سطور ماضيك وربما تقرأ تفاصيلك التي نسيتها أنت.

هل تمنّ الأيام عليك بجلسة تفرد بين يديها كامل حقيقتك؟ حتى تنزع من عينيها نظرات الشفقة والعطف؟

لا ليست شفقة، لو كانت كذلك لما اقتربت منك وابتسمت، وأطالت معك الحديث أكثر ما يستدعي وضع كيس القمامة في العربة! ماذا تفعل وأنت تقضي العمر في تمن وحسرة وحنين؟ لماذا تكثر منك الماذا؟ لماذا تتشبث بقول النفّري» كل شوق يطفئه اللقاء لا يُعوّل عليه « لماذا

تقف طويلا أمام مرآة ذاتك. تراجع مآضيك وتقرأ أبجديات علاقتك بمن هم حولك، وبماضيك وحاضرك؟ لماذا لا تنمو هذه الأفكار والمشاعر إلا في الظلام؟ لماذا تهرب لعوالم لا تنتمي إليك؟ لماذا تصرخ فيك الماذا؟

شباك الصوت (٣٠)

مر الكثير على هذه الأوراق طي صندوقي الخاص في غرفتي التي أخبئ مفتاحها في صدري. لا أسمح لنسمة أن تصلها رغم محاولاته الكثيرة للدخول. مرة بالترغيب ومرات بالزعيق والغضب. حتى وصلت المباحثات بيننا لطريق مسدود. إما طلاقي أو فتح غرفتي والنبش في أوراقي. كلح لون الأوراق. ظلت تشكل لي هاجسا يضغط على شرايين قلبي. أريد للناس أن تقرأها. ما جدوى أن تظل حبيسة السطور؟

هل تحتاج هذه الأوراق لقراءة جديدة؟

لماذا أعيد كتابتها وأنا على يقين من أن الألم سيصاحب هذه التجربة؟ هل أنا بحاجة لأوجاع وخسارات جديدة؟

ألتذ بذلك الألم كأنني أتخلص من أوجاعي ويضطرني أن أستسلم لواقع يبدد من حولي ظلمة الوحشة! هل ما سأقوم به نوع من الخلاص بالكلمات؟ هل عندما نكتب نمارس الحياة بطقس جديد ونخوض عباب مياه عميقة؟ الكتابة ليست تعبيرا. إنها رئة للتنفس وتحطيم لكريات الألم.

أدرك بعمق أن الأنثى كالحياة تتغير وتتجدد. حتى لو كان من نحب بعيدا وعجز عن رش دوائه على جراحات أرواحنا..............

يا للرياح التي فصلتنا مئة عام أو يزيد!!

يا لانجذاب الروح وانشداه الجسد وارتباك القلب الذي ضَجَّ، بعد أن ظن ألا لقاء.

هل أصوّر صوت دقات القلب الذي جأر عندما لمح الاسم؟

أيقظت فرحتي، منحت عيني فرصة السباحة في أعماق دمعة، ألحت لأجنحة القلب أن تطير في ظلال لحظات مضت، أغرقتني بفرحة عرضها اتساع العمر، كم أشعر بالوحدة بعيدا عن بهائك، كم أنا فقيرة للاتصال بك.

بعدك لا أحد، رغم كثرة الوجوه التي تنسيني كل الملامح سواك.

أصبحت وجها للمقارنة، أنت الكل في واحد والجزء في المجموع.

وجودك منحني لذة اكتشاف تفاصيل الأشياء ومنح الأشياء أبعادها، دونك، تتقلقل في الصدر الأسئلة وفي الرأس أوجاعها، تهرب الطمأنينة من يقين القلب، بك يتساقط الآخر من الذاكرة ويضيق الفؤاد إلا إليك.

بك تسترد الروح شهقتها والعين بصرها والدم نبضه.

قل لي : متى تصبح الأحلامُ بعض أقدارنا؟ ولماذا لا تفيض بغير الكلام؟هل الكتابة وسيلة الهروب من عجزنا؟ لماذا كل هذا الاحتراق؟

لو لم نفقد أحبابنا، هل يظلون في حيز الإحساس فينا؟هل سنظل أوفياء لحبهم لو احتويناهم، هل سيعيش تعاطفنا معهم لو أتاحت الظروف الاقتراب منهم أكثر؟

لماذا طعم الحب الأول أصدق؟ ألأنه ضاع منا قبل أن نشبع منه فظل طعمه عالقا في أفواهنا؟

في أي زمن يجب أن نبقى؟ ما هي المشاعر التي علينا أن نزاولها لكي

نحتفظ بإنسانيتنا؟ ما الذي يحدث عندما تنظرني وأنظرك؟

أعمارنا مضبوطة على آخر شهقة عبرت فؤادينا. فهل يكفي العمر لاسترداد لحظة فرح؟ لماذا يظل شعور الفرح قصيرا؟ لماذا نحسب أعمارنا من لحظات الوخز على شغاف الوجد ونعيش في إحساسات خاصة في زمن خاص مهما كان عرض اللحظة محدودا؟ لماذا نقف بتقديس أمام لحظات نقايضها بفضاء العمر؟

روحي صحراء. فهل تستطيع زراعتها بعشبك وتشرع نافذتك لغربتي؟

لماذا يتفتح وعينا بعد أن تنكسر في دواخلنا أشياؤنا الجميلة؟ ما الذي تفعله بنا الأمكنة ولماذا مرورك على مكان يثير فيك الشجن؟

تتلبسني التفاصيل فمن يأخذني منها؟

فراغ يجتاحني. سأم يفرش أغطيته على مسامات الروح. متغلغلا في دواخلها.

يا سيد الغياب.. خيوطك تنسلّ مني مخلّفة وجعا يلتف حول ذاكرة مشرعة على فضاءات وجد يمور بالحنين.

أتصدقُ أنني حاولت اغتيالك مرارا والانقلاب عليك. كثيرا ما حدث ذلك. لكنني في نهاية كل محاولة. أصحو على صوتك يأخذني. والملامح التي أغمض عند تذكرها. ترتسم فيما حولي من أماكن. أصحو عليك تحتويني واللحظة تفيض برذاذ عطر يفوح بالأركان.

ما الذي يعترينا عند لقاء لعبت بحيثياته الصدف؟

كرّت في ومضة قلب كل التفاصيل التي غادرتُ وظننتُ ألا رجوع.... وقفتُ عارية راجفة خجلى.

ما الذي حمّل الروح شفافيتها والجسد بهاءه والدماغ سطوته؟

كيف عادت تلك التفاصيل و رجفة الصدر وذاك الارتباك المزرق على الشفتين؟

دوما تعيّرني و تقول...

لن أقولها. قلها أنت في سرك. وارفع حاجبيك عجبا من تلك التي لا زالت تحتفظ بقلب طفلة.

إنه جذل الروح راقصة على أنغام وعد لم يُضرب. وفرحة لقاء ما كان يتم. ولكنها أسلاك تربطنا بهذا العالم الواسع. فياله من اختراع عظيم قرّب المسافات وحال دون التلصص على خربشات العاشقين.

لك أن تتصور مساحة فرحي. أنا التي تزوجني الحزن ووقّعت معه عقد التزام.

مجرد تصفح عينيّ لحروف اسمك. تلاشى الغضب. وخف الوزن وتباعدت الخطوات. أصبحت وجوه الناس مشرقة بالبهجة.

غيابك فاتحة حزن طال. حاول الجميع أن يعرفوا سببه. حتى أمي الأقرب. نهضتْ غاضبة بعد جولاتها اليائسة. أما المسكين. فقد توارى بعد أن ظن أن مرضا أصابني.

لا تفسد نشوتي بالسؤال. ولا تحاول إخراجي من هذا الفيض الملائكي الذي يحملني على غيمة من حنين.

ما الذي فعلته بي. وما الذي يحدثه فيّ حضورك!! لو تقابلنا ماذا تكون النتيجة؟

مشهود ذاك اليوم. لم تُعد الاتصال. لم تطرح رأيا ولم تعط تفسيرا.

تحرقني نار التخمين، أستحضرك بالتفاصيل التي تعودتها، جلسة المقهى، سحائب السجائر وأحلام مسافرة تلملم أشتات الوعد.

اشتياقات تتجدد بالأمل، جمعتُ حتى الغائب من تفاصيلك، اعتصرتها، لملمتها نتفا مع قصاصاتك التي تنضح فلسفة، جمعت الأضداد على نفس الطاولة التي تعاطينا حولها الأمنيات، طيفك غمامة تهطل وجدا.

هل استحضرتني أم انشغلت بمن أسمعتهن فلسفاتك المعهودة؟

ليلة رأس السنة، حضر من تعرف، حاولوا قضاء ساعة انسلاخ العام، جالبين ما تحتاجه المناسبة، أمسكوا شرودي غير المبرر، سألوا بأعينهم، لم تجبهم غير الدموع التي كابرتُ في إخفائها، رصدت لحظات الاحتفال، أكتب تفاصيل ما جرى، يجرحني الغياب، ويقيّد خطواتي الفقد.

كل حرف كان من نزف الروح، فهل ما زلت تحتفظ بتلك الذكرى!

لا تفرّط بما سيحكي قصة القلب الذي ضاع على أرصفة التمني! لا تتركني لألم الفقد.

المغرضون أظهروا تشفّيهم، قالوا : جبان لم يقو على مواجهة الموقف، ومتردد لا يستطيع اتخاذ قرار، تذرّع بالسفر وضحّى بقلبه في سبيل الدرهم.

ربطتُ خطواتي بعتبة مكتب البريد، بعد أن أدمنت سجائرك، صار موظف البريد يصفعني باسما برده

:- « لا رسائل جديدة».

نقّبت عن كل ما يشحنني بذكراك، استنفدت حتى كتبك التي

زوّدتني بها. لم أقرأها من جديد. اكتفيت بهوامش قلمك الرصاص. لقيتك. تحدثت معك وتبادلت معك الآراء.

حالة نادرة. أجدني فيها ألقي القبض على ملامحك. أتملى تفاصيلها حتى خلجات صوتك. تمارينك التي أردتني القيام بها. عند إحساسي بالضيق. وجدتني أمارسها. انصياعا لشيء غريب فيك.

بلا وعي أدلف الأماكن التي تعودناها. مدفوعة بشعور غامض.

جلست على نفس الطاولة في بهو الفندق. وحيدة. نظر إليّ من حولي بعيون تكحلها الدهشة. ماذا تفعل وحدها؟

يزداد الاستغراب عندما ألملم نفسي مغادرة. بعد أن أدخن سيجارة وأرتشف فنجان قهوة. أجرجر قدميّ بلا رغبة في المغادرة. خلافا لحالة النشوة التي صحبت حضوري.

لماذا تلح تلك الليلة. وقد جهزتُ نفسي للقاء طويل.

أرسلت رسالة عندما سألتني ماذا تفعلين أجبتك : « آخذ دشا دافئا». لم تلتقط الإشارة. ربما فهمتها وطنّشت. آثرتَ أن تجلس قبالتي. لم يُغرك البنطال الأسود! هل اعتبرته فأل سوء فلم تقترب؟

عندما أحضر الشراب امتنعتَ. أخفتَ مني عليّ؟

أسئلة عالقة. تحتاج إجابات مسهبة. فأين أنت. ومتى تعود؟

أعدك. لن أمارس حماقتي. فقد تعلمت الدرس.

هل بقيت على غيرتك أم أن الأخريات هذّبن فيك ذاك المرض؟ هل ترفع حاجبيك دهشة؟ أتريد أن تعرف السبب؟

ذهبت لصديقك الذي يعرف قصتنا. تعاطف. مظهرا شفقته. كرهت

منه التقرب بنكتة ساذجة، لم أُعلّق، طعنتُه بنظرة احتقار وغادرت.

أفهم الرسالة ولم يعاود الاتصال!!

غمزتْ لي أختي الكبرى، أمسكتْ بيدي ونحّتني بعيدا، ضحكتْ قبل أن تشير لدولاب ملابسي، سألتها بيدي، ففزعتْ لدفتر سميك وجذتهُ بين أشيائي، فيه بعضك، أعجبها الاسم، اشتقّتْ منه الكثير، استوقفتها صورك بين طلاب الجامعة، و اللباس العسكري، قرصت وجنتي معلقة : أهذا الذي يكتب لك كلاما لا أفهمه، وضحك عليك بكلامه الغامض؟ العمر يهرب وأنت تنتظرين الوهم! لو كان حيا لأرسل خبرا.

كم تَغيرنا...أم كلثوم التي حرضتني على سماعها، صرتُ أستفتح بها نهاري ولا أنام إلا على صوتها، تركتُ نجاة وتعلقت بثورة الشك، غبطت من يتعلمون الموسيقى!

أعود لصور أوراقي التي بعثتها، أحقد على نفسي، أخلو إليّ ساعات أغلق فيها البال على وحدتي، يأكلني الغيظ على قسوة ضمنتها بعض رسائلي، وكلمات رقراقة تنساب كما النسيم في بعضها الآخر، تفرحني كلمة أناجيك بها، وأحزن للّهجة العنيدة المكابرة.

أعاقب ذاتي بعضّ الإصبع التي خطّتْ تلك الترهات! هل تستغرب؟ مجنونة كما وصفتني!!

صارعتُ الظروف، صمدتُ أمام العاصفة، أقنعت مَن حولي بالدراسة، أوشكت على التخرج، سأحصل قريبا على الشهادة!

تحذيرك يصطخب في أذنيّ :...تذكري...نحتاج لشهادات تفخر بنا، لا أوراقا نفخر بها.

أيها الهارب في أبجديات التفاصيل، ينتحر العمر على أبواب المستحيل، يتجرع سموم الأمنيات. ماذا أبقيت لي في جرار الوهم، ولماذا ابتعدت؟

ألم تلحظ أنني ما خرجت عن ذاتيتي في الحديث؟ لا تقل إنها الأنانية، بل ابتعادا عن مدن تقول غير ما تخفي وتمارس في ليلها ما تخجل منه في نهاراتها. مدن الصمت والرضى بالحال، تجتر صباحاتها وتحيا على قلق، تقرأ في عوالمها متناقضات تخفيها مساحيقها اللامعة وأرصفتها الصقيلة، يشدُّ الذهول قسمات ساكنيها وتضيع الملامح التي لا تترجم معانيها. طناجر ضغط هذه المدن، تمر السنوات على ناسها نسخا، وتتوالد صحافتها بعناوين مكرورة.

قميئة بلاك. أعيد النظر في ماضينا، أستذكر إلحاحك في التعاطي مع الجسد حد السادية، والانفعال حد التشنج، والبكاء حد الانهيار.

هل كان ذلك مجرد أبجديات لإعلان اللهو أم ممارسات ننسى بها غربتنا؟

جاريت تطرفك كسبا لرضاك، وصولا لجواب على سؤال يتقلقل داخلي.

ندور مع الأيام أملا في نسيان إيقاعها، إيقاظا لوعي يتلاشى أو يغيب.

مرارا حاولت الاندغام، أكونك وأتمثلك، فتهزمني ذاتي، وتعلن نصرها على ضعفي، فألوذ بكبرياء كاذبة، ويحتدم القلب والعقل.

ما زرعته فيّ لم يغادرني، ظل ساكنا، رغم تساؤلاتي الملحاحة.

أتنفسك وجدا و سعادة ورضا.

ما الذي يدفعني للإقبال على انتظار مستقبل مجهول ودخول أمواج اتهامات، وبين إدارة الظهر وتجاهل نداءات واعدة بزوج مضمون الجيب،

معروف الاسم، خطير الرتبة.

قال بعضهن إن ظله يكفي لأكون زوجة، تنعم بالجاه وحسد القريبات. ما السر فيك، هل هو الركض خلف غير المتاح أم رفض المبذول؟ لماذا نهرب ممن يسعون لنا؟ أي لعبة وجودية نتعاطى دون أن نمسك أسبابها؟

جذوة القلب تهب عليها الريح فمن يشعلها!

من يعيد للجسد الذي حرثت تفاصيله توازنه؟ يمشّط بلهاثه مناطقه النائية.

من يطري رائحة النعناع البري التي يكوّنها؟

من يمتص رحيق اللسان الذي عقدته الدهشة ضعفا أمام أميتي في استكناه الرعشة، والوقار الكاذب!

تماديت في مهزلة البحث عنّا في أصوات الآخرين، أدمنت السهر واختيار أرقام عشوائية للهاتف أتسلى بها، علّ صوتا يكون قريبا، صادفت الكثير ولم أجدك. نبرة رخيمة دافئة.

تقبّل البعض اعتذاري عن الاتصال الخاطئ واهتبلها البعض فرصة لرمي شباك اللطف.

قسوة تعاطيك عاطفة وجسدا ونقاشات، انعكست دونما تخطيط مسبق على من حولي، أصبحوا يشيرون لتغيري تجاههم وتجاه ذاتي.

أفرّ من المواجهة مُظهرة انزعاجي وغضبي على فتح نقاشات عقيمة، بت على قناعة أنني أريدك امتلاكا يوازي الغياب أحلم بقبضتك تهزني كما قوة صوتك، بقرارك الحازم يأخذني أمام الجميع.

حملني التفكير بعيدا، ربطت الأحلام بواحد ناء يكون ليلة زفافنا، ما أحسست لحظة أن شيئا قهرني، لكن قلاعي هدمها الغياب ورايتي

رفعتُها لمضاء قسوتك.

هل القسوة هي التي حددت اختياري لكثير من تفاصيل العمر؟ هل هي التي دفعتني لاختيار رسالتي عن (همنجواي) الذي حملت مأساة شيخه؟ كنتَ قبل أن تكشف الوثائق، تقف طويلا أمام مقولة انتحاره ولا تسلّم جريا وراء الصغار ممن لا يتعمقون النصوص.

يأسرني فيك الوعي وعدم التسليم، كنت تقول : أغبياء من يروّجون انتحار همنجواي، الانتحار سلاح المهزومين.

صوفيتك التي تتقاطع مع العقلانية والشهوانية، سبب آخر يضاف لجنوني فيك، اندغامك بالوجود متصالحا مع أبجديات الكون التي ما أوجدها الرب إلا لسعادة المخلوق الذي فشل في ترتيب الأولويات.

تؤكد أن رحلة العمر محطة للتزود، لم نستقبل الموت كارثة بل فرحا، تصرّ أن الموت ليس فناء بل انتقالا، أتراك لهذا لا تؤمن بالحب لأنه يعيقنا عن السعي لفرح أكبر؟

أسقطتُ من حسابات العمر فرص الربح، أصبحتْ نظرتي لأقنعة الأشخاص بلا معنى، لم يعد يعنيني الزيف والذوات المشظّاة.

نظرات الغزل التي أبحث عنها، وأتلهف على سماعها، ما عاد لوقعها اثر في أذنيّ. أصبحت أتعمق ما حولي بلا تعليق، أختزن ما يعجبني، حروفك فقط ما ظل يقربني منك. أسافر إليك في عناوين المجلات التي قرأناها، أصبح الصمت فلسفة ألوذ بها من تفاهات تحيطني، موات يُقرأ على الخطى الواهنة وفي الرؤوس المدلاة والنظرات الساهمة، قوة لا أدرك كنهها تدفعني للبحث عنك!!

ديوان الشعر الأحب لديك، صرت أحمله، أفتح صفحاته على القصيدة

التي لا أطالعها. أمعن النظر في حروفها وفواصلها. يمر بي كثيرون، يرمقني من يلاحظ بحلقتي في الصفحات طويلا دون تقليبها. أتلذذ بالجلوس على المقعد إياه. أتخيلني أرفع ذيل فستاني محققة رغبتك في الإمعان برمانتي قدميّ. أفكر، ماذا يجد اللعين فيهما من متعة ! تلحّ، أراقب نظراتك تسبح في بحر اللذة، وتسقط في القلب قطرة فرح.

أجبني ما الذي يتراءى لك وأنت تمارس طقسك!!

هل تترك الجواب لذكائي كعادتك؟

عرسان كُثر هرّبتهم أمي إليّ باتفاقات ظاهرها الصدفة. أدركتُ اللعبة وانسقت في تفاصيلها جريا وراء حدس البحث عنك في آخرين خرجوا من المقارنة خاسرين. ولو وجدتك، فإن القلب يرفض مجرد المقارنة، رغم مسوغات العقل للرضى بالأمر الواقع وتقبل النتيجة بروح رياضية.

لعب أخي على حبل التشويه .

قال لأمي مشكوك في وطنيته. علامات استفهام تلف مسيرته. تاريخه ملوّث وإدانات كثيرة تتجه نحوه، سجنه محض اتفاق لتلميعه حتى يوقع بالرفاق. مكوثه في السجن ضربٌ لعصفورين. لماذا تعرّض للاغتيال ونجا بأعجوبة وتوارى عن الأنظار؟

أكتبك باحتراقي وتقرأني بانطفائك!

تصيبني وخزة ارتباك. ينخرني الكلام عنك. صحوة مفاجئة تبرق في الوجدان. أعض على جمر السؤال، أحبس في داخلي بركان شك. أنفض الأفكار وأعود واثقة. أستعيد مقولاتك العظيمة : صغار اللصوص يدخلون السجن، وكبارهم يدخلون التاريخ.

قرأت « آنا كارنينا»، تمعنت في مفرداتها. استوقفتني كل الخطوط التي وضعتها بالأحمر تحت الكلمات. لكنني لم أستوعب مضمون رسالتك. هل كنتُ تلميذة كسلى أم أن المعلم لم....؟

هل عانى تولستوي حتى كتب روايته أم أن صديقا عايش تجربته فلخصها له؟

لماذا أستشعرك بإحساس فنانة وشفافية مراهقة وعمق امرأة مجربة؟ لماذا يغلي فيّ بركان عندما أربط ذكراك بقطتنا في شباط وصخب مطره وعنف الرياح فيه؟

وسّطت المعارف بحثا عن عمل... لم يعجبني تناقض الحال. بصقتُ بوجه المدير الذي مدّ بسمته العريضة تمهيدا لعلاقة ظنها ميسورة. انتفضت بوجهه. سألتْ عيناه بغباء فاضح. تمتمت « يا عاصمة الجوع : قطيع يعريه البذخ وقطعان ينخرها الفقر. شوارع لا يمكن النظر فيها لامرأة. وأخرى تساوم فيها النساء بلا عدد. أي أقنعة تلبسين؟

صفقت الباب. تهت في بحث جديد. توسط من يطمع في وصل بعيد. معتمدا على خربشات ألقيها على مسامع معارفي، وبعض قراءات قربتني من أجواء المثقفين. قال : ما رأيكِ ببرنامج للأسرة؟ طارت بي الأحلام. قلت أحدثني : على الأقل يسمعني بعض الذين راهنوا على فشلي. وقد تسمعني أنت!! وتحرق نفسك ندما على تفريطك. سيصبح صوتي بؤرة. ترتجف حولها القلوب. مشكلتي أنني أجيد كلاما يدمّرني. ويجعل الآخرين يفهمونني خطأً. ضاع صوتي. أصابته البحة والاختناق. في وسط يعمل للأسرة وجميع العاملات فيه مطلقات.

هل فقدت احترام نفسي عندما لم أجد وظيفة أحقق بها ذاتي. أم

لعدم قناعتي بمن حولي من رجال؟

تقتحمني قشعريرة وأنا أنظر لواحدة تلقم ثديها فم طفلها. لماذا ينتابني هذا الإحساس، أهو الجسد الذي نهيل عليه تراب العيب أم السعي لتحقيق أمنية دفينة؟ أية لذة أقرأها في عينيّ من تمنح صدرها لطفل؟ ليتني أجرّب هذا الإحساس!!

عادت المخيلة لأيام مراهقات التغيير.

اللسان جاهز للرد والمقارعة من قبل أن يصفعني الطبيب بقوله : «قلبك ضعيف»

المفروض أن أستوعب المسألة، لكنّ هوس قلب العالم غطّى على كل إحساس بالضعف. المفارقة : جرأتي وخوفي القاتل من رؤية مجرد صرصار، تذكرت هذا لحظة أن حاول أحد الرفاق أن يكون قريبا بقبلة. لم أصح يومها إلا على صفعات كفه تضرب وجهي، إيقاظا من غيبوبة مفاجئة، ودمعات فرّت من العين والقلب معا.

راودتني فكرة اللقاء، في النوم واليقظة. لم تسعني الفرحة عندما ألحت بإمكان تحقق الحلم، فكرتُ فيّ، تساءلتُ: هل تراه يعرف التفاصيل التي ضلت طريقها لذاكرته؟ هل غيّرتني الأيام حتى لا يعرفني. أم أن بوصلة القلب ستقوده إليّ؟

راهنت على الفضاء المركون في قاع الروح، صحيح أنني حاولت استحضار التفاصيل، لكن تلميحاتك بطقم الأسنان والصلع، أضاعت بهاءك، وخالجني خوف ألا يدلني قلبي عليك.

استحضرتك بالكاكي والبدلة الكحلية، تهت في تفاصيل لحظات سرقناها معا، وكلمات هربتُها ملغومة في سطورك، رأيتنا في الحلم،

هل هي المراهقة المتأخرة؟

عشت ما لم أجرؤ على مجرد الإشارة له في الواقع، هل مررت بنفس الحالة؟

وهل ما زلت بشوق للتحديق برمانتيّ، متمتما وأنت تغرس سهام نظراتك في ظهري؟

أعرف أن لديك الجرأة لتعبّر عن مشاعرك، وأنك كنت تراهن على عدم رفضي لجاراتك، لكنني أدرك عمق فلسفتك عندما كنت تقرأ استجداء الرغبة في عينيّ ولا تطاوعني موضحا : عميق سر الإنسان، بالتقاء جسدين، يتلاشى وهج الاحتراق وتنطفئ جذوة الوله، وندخل دورة الابتذال. أعرفت لماذا اهرب؟ أقتنع، مضطرة لجاراتك.

تقلبت... هجرني النوم... الملفت أن اللقاء جاء باردا، عاديا ودون القلق الذي تهيأت له.

لم تهزني رعشة الانتظار، لم يشتعل في جوانحي حريق اللهفة.

لا تراوغ، فهذا ما أمسكت به على شفتيك المرتبكتين. لماذا انطفأت شموع الفرح في قلبينا؟ حسرة خثّرها القلب ودموعا طفرت بها العينان، وقهرا تنامى في الدم.

أدركت فداحة ضياع الأمنيات، أنَّ في داخلي صمتا، طاردني إحساس قاتل بالذنب.

كابرت، وتجلّدت، فهل تريد أكثر من هذا ضحكا على الذات؟

استنجدت بك عندما يبس الحلق، أحضرت ما أطفأ عطشي، قفزت متعثرا بفرحك.

استعدت جلستنا المسائية على شرفة الفندق المطل على عاصمة الفقر واختبائي عن العيون بنظارتي، والنادل الذي قرأ على وجهينا سبب عزلتنا، ويده الممتدة بالفاتورة بما يعادل نصف راتبنا، وارتباكك الذي أمسكت به عندما طافت على ملامحك موجات الضيق، وقهرك الذي لم تترجمه الكلمات.

لذت بصمت، سمعت أنّات دمعك، تهنا في ممارسة طقس نتحرق له

:- طفلتك أنا...أبي أنت... أمك أنا...ولدي أنت.

طافت بي رؤى بعيدة، أرسلتْ زفرة اعتراض ثائر

: - لماذا يدفعنا الواقع للعيش بقناعين؟

شباك التنظير(٣١)

نظر الرجل الذي اقتعد كنبة فاخرة ذات منشأ أوروبي لصورة الزعيم المعلقة بحجم مبالغ فيه على الجدار بابتسامة لا يمكن للناظر تحديد معالمها وقال بصوت هامس أقرب للفحيح موجها حديثه لصاحب الصالون السياسي الذي اعتاد أن يجمع القوم في مثل هذا اليوم من كل شهر...

يعيش الناس حالة ترقب لتغييرات كبرى والكل ينتظر رنة الهاتف بتوتر....

رد ضيف يلبي الدعوة لأول مرة وهو يمد يده حائرا بين أصناف الحلوى التي لا يعرف لبعضها اسما...

الوطن يغص بألقاب المعالي والسعادة والباشاوية. أصبحنا نجاري الدول الكبرى في هذه المسميات. حتى أن أفراد الشعب أصبحوا يأملون أن يصلهم الدور......

قاطعه صاحب الفم الأدرد الذي سافر لفرنسا مؤخرا على حساب التأمين الصحي لتركيب طقم أسنانه الذي لم يجد له مكافئا في كل عيادات البلد والعالم العربي....

هذه الإشاعة كما سابقاتها. بالونات اختبار ليس غير والأمر مرهون بما يتم في الخارج. نحن إسفنجة فقط.....

استفسر أحد الذين بهرهم ديكور الصالون ولون طلائه ونوعيات ثريات سقفه ما لم يكن موجودا قبل ثلاثة أشهر. وكان يتخذ مقعده في الزاوية البعيدة بكلام لم يستطع إيصاله للجميع بسبب حشرجة صوته.....

ماذا تعني بذلك؟ هل القرار ليس بأيدينا؟

أجاب صاحب الرأس الذي محت السنون والخطوب بقايا شعره وانعكست عليها إضاءة السقف بوضوح....

عندما يفقد السياسي حماسته ولا يجد خريج الجامعة وظيفته ويصبح الإنسان نهبا لتغول الأسعار ويفقد القانون هيبته وتتقلص وظيفة الدولة لفض نزاعات فردية وقبائلية ويتحول المجتمع إلى قطيع من الوشاة ويرتفع مؤشر الجريمة بسرعة الصاروخ وتصبح ملامح الناس صفحات لا ترسم غير المبالاة ماذا يمكنك أن تقول؟

هذا تنظير يتجاوز المعقول ونظرة لنصف الكأس الفارغ. المهم ماذا يقول الشارع لا ما تقوله النخب....

الشارع؟ وأطلق ضحكة لفتت بجرسها وجدتها انتباه الذين دخلوا في نقاشات جانبية. الشارع يا سيدي ينتظر بفارغ الصبر الانتخابات ليبيع صوته. وبعد أن يقبض الثمن يرسل لعناته للجميع. بعد أن أدرك أن الجميع يمتطون ظهره للصعود لكرسي البرلمان.

لا بد من عنوان كبير يجمع الناس حتى يتناسوا فرديتهم وأنانيتهم الصغيرة...

ألم يجربوا اليمين واليسار والوسط؟ ماذا كانت النتيجة؟ بل ماذا بقي من عناوين ومن شعارات تجمعهم عليها؟

علينا أن نخمد النيران الصغيرة التي يشعلها البعض ظنا منهم أنهم بذلك يوجدون ملهيات تشغل الناس وهم في الواقع يشعلون حرائق ربما يصعب إطفائها عندما يخرج الممثل عن نصه...

البركة في الصحافة ومنابر الإعلام التي تضبط إيقاع الداخل بما يناسب رؤيتنا...

أين استطلاعات الرأي الحقيقية التي تعكس حقيقة التفكير المجتمعي بصدق وشفافية؟

لا يحتاج الأمر إلى استطلاع. الجزيرة حصدت اهتمامات العامة والخاصة رغم ما عليها من مآخذ. والفضائيات الترفيهية تنازع الجادة ببرامجها التي تغيب الوعي وتخاطب اهتمامات الشباب. أما الصحافة فيكفي لتقييمها أن تنظر لحجم صفحاتها الإعلانية لترى كم هي تولي القضايا العامة من اهتمام.

هناك غضب يتراكم. بدءا من النشرة الجوية التي لا تعكس مصداقيتها وانتهاء بتعبيد الشارع الذي يستهلك أضعاف ما يحتاجه من وقت وجهد وميزانية. أخشى أن يتحول الغضب إلى حقد...

قلت إن الصحافة توقف انحرافات المسار الخاطئة...

إنها تدفن رأسها بالرمال وتظن أنها بتجاهل الحراك الداخلي تلغيه متناسية دور الفضائيات في الخارج وبث الأقمار الصناعية وانتشار الإنترنت والدور الخطير للمواقع الإلكترونية التي تؤجج وتنبش وو.......

وصحا الجميع من نقاشاتهم التي ارتفعت وتيرتها على صوت الخادم يعلن للجميع أن بوفيه العشاء المفتوح أصبح معدا الآن.

شباك الطفولة (٣٢)

هل ما يحدث له علاقة بطفولتي؟ تغسلني أمواج الطفولة كلما وجدت نفسي أجلس في هذا المكان. هل لطبيعة الجلسة أو زمانها أي ارتباط بعالم الطفولة؟

عندما تنحدر الشمس باتجاه المغيب أجدني مندفعة للخروج للبلكونة الشمالية. أضع الكرسي وفنجان القهوة وأتلذذ بارتشافي مذاقها الذي يسري في عروقي. ربما يساعدني هدوء البيت الذي يخلو من ضجيج الأولاد وطلبات الزوج ولعلعة الجرس من شيطنات أبناء الجيران.

يعود العمر لسنوات تغور في الأعماق. أقارن حاضري بماضيّ وأتحسر.

حلمت أن ستؤول أيامنا إلى ما يشبه الكارثة. تحرقني الحسرة على أم غزا مفرقها الشيب وهدها البعاد. وأخوات وأخوة تفرقت بهم سبل العيش وفجيعة الحرب ولا اتصال بهم غير هذا الهاتف.

لماذا تصبح السعادة في لحظة لا وعي أمنية نطلبها في لحظة وعي؟ لماذا انتهيت لامرأة مطلية بالخذلان؟ لماذا لا أجرؤ على الوقوف بوجه من يهزمونني؟ تنتابني مواقف ضعف لا أستطيع تفسيرها. أهرب منها بالمهدئات واصطناع الإخلاص في العمل ومساعدة الآخرين وأنا أضعف

من نملة أمام من يستبيحني، بدءا من الزوج والأولاد والأهل وانتهاء بزميلات العمل ورئيسه.

قرأت خلسة محاولة لاكتشاف أغواري. كلما تعمقت، ابتعدت عن ذاتي وازددت ضياعا. قالت صديقتي التي تطل على كثير من تفاصيلي

- تذكري مفاصل طفولتك، اعرضي نفسك على طبيب. هل يمكن أن يكون انكساري عائد لتلك اللحظة؟ لماذا ظلت راسخة بالذات تملأ على وجداني رغم مرور السنين؟ لازالت أفياء العصر والهواء الندي تصافح وجهي. تلفحني سكينة من نوع خاص وأنا أستعذب طفولتي مع أولاد الجيران. والأهل يسمرون على ضوء القمر يتندرون بالأحاديث ويعلقون أحلامهم على وعد قادم، وصوت المذياع الوحيد يستجدي الحاضرين للانتباه بلا جدوى. همس والدي الذي ناداني يوما على استحياء: كبرت يا ابنتي وعليك ألا تلعبي مع الأولاد بعد اليوم!! لم أفكر يومها بالأمر. ظننت أن هذا تدخلا من والدي الذي أعرف أن لي مكانة عنده. تساءلت في سري: لماذا لم توجه أمي هذه النصيحة؟ لماذا يحاول أبي كسر الطفولة الغضة في داخلي؟ لماذا يحرمني من ساعات أحياها بوعي كامل بين الأولاد وبنات الجيران؟ ألا يدرك أي عالم تطير إليه فراشات روحي ونحن نلعب «الطماية « و«البنانير» و«عسكر وحرامية»؟ ألم يجرب معنى أن يصطف الأطفال في حلقة ويمارس كل منا كذبه الأبيض أمام رفاق الحي الذين ينساقون وراء الحكايا المبالغ فيها ويصدقونها رغم معرفتهم أنها كاذبة؟ أي معنى غاب عن والدي وهو يحرمني من الركض

خلف فراشات الربيع عند كل غروب من لذة التماهي مع الآخر بلعبة تقربنا أنا وفتحي وتجعلنا ونحن مختبئين نحس بلهج أنفاسنا التي لا نجد لها تفسيرا إلا بالالتصاق أكثر؟

أمي!

نحلة البيت التي لا تستقر، تحمل على كتفيها مسؤولية الأسرة وطلبات أبي التي لا تتوقف. ما رأيتها يوما ضاحكة، تملؤها جدية التعاطي مع الزوج والأولاد وحتى الجارات اللواتي يحاولن جرها للحديث عن ماض بعيد في علاقتها مع أبي بلا جدوى.

أمي، جمل الحامل، رأيتها مرة واحدة تعبر عن فرحها وبطريقة لم تفهمها طفولتي آنئذ. كنت من قبل لا أظنها قادرة على الابتسام كما الأمهات!!

أي سر اجترحه والدي في تلك الليلة حتى انفرجت أسارير أمي وأظهرت تلك السعادة التي ترجمتها ملامحها بصوتها المخنوق الذي لم تتمكن سنواتي التسع من تفسيرها؟

أي فعل قاما به في غياب جيش الأطفال ودون أن ينتبها لعدم إغلاق الباب؟ لعلهما ما ظنا في حمأة البحث عن المفتاح الذي يفتح الأسارير ويجعل الجسد ملتاثا بنوبة لغة خاصة، ما ظنا أن فتاة ستكشف المستور وتشق سجف الليل وتقف على مشهد في فصل من فصول الحياة. رأته عرضا وهي تفرك عتمة الليل عن عينيها بحثا عن أم ما تعودت ابتعادها. تلبي حاجتها كلما طاف بها العطش.

كبرت البنت في داخلي دون أن أحقد على أبي. ظل في وجداني سببا سحريا كسر القالب الذي تعودته من أمي. أحببته لأنه استطاع أن يكافئ أمي عن شقاء النهار. لكنني تساءلت دون أن أطرح تساؤلي على أحد : لماذا يبدو والدي نهارا مع أمي رجلا غيره في الليل؟

مرة أخرى يعوزني التفسير للكثير الذي يمر بي. غير أن صديقتي التي توغل في نظريات علم النفس وتشرح دماغي بقراءاتها، تخيلني إلى أن انكساري يعود في امتداده هناك. حيث تلك اللحظة التي نسيت فيها أن أسأل أمي عن كوب الماء.

في أحايين، تستوقفني مقولات صديقتي وأجدني منساقة لتصديقها. أسألها: لماذا أتظاهر بالاعتداد بالنفس أمام الآخرين؟ لماذا أندفع دون أن يطلب مني لتقديم خدمات عامة؟ لماذا أعمل جاهدة على بناء علاقات واسعة مع أكبر عدد من الناس؟ هل لأبدو اجتماعية تحب الخدمة العامة؟ هل هي محاولات لا واعية لتعويض ما يتقوض داخلي من خسارات وانكسارات؟ إن كنت غير ذلك فلماذا أهرب للمهدئات؟ صديقتي على حق في كثير مما تشخص به حالتي. عليّ أن أظل على تماس معها لكي لا أخسرها. أليست الصداقة أن نرى ملامحنا على وجوه من يحبوننا؟

شباك الطبيب (٣٣)

مرض ياسمين الخطير لا يجب أن يظل كما تريد هي مخفيا عن أهلها وزوجها!! تفاقم وضعها الصحي وتضخمت خلايا الدماغ بفعل المرض اللعين و أصبح الأمر خطيرا جدا لدرجة يصعب معها المزيد من الانتظار، تلك مسؤولية أدبية وأخلاقية وقانونية، يجب ألا أخفيها نزولا عند رغبة المريض مهما كانت نيته حسنة، لا بد من التوقف عن إخفاء سر المرض ولا بد من مصارحة الزوج والأهل، فما الذي يضمن عدم حدوث مكروه مفاجئ لها؟

شباك الزوج (٣٤)

تحملت الكثير من عصبية ياسمين ونزقها، هي متأكدة أنني لا أعرف شيئا ولكنني أفعل ذلك أساعدها لكي تشفى، العامل النفسي مهم في مثل هذا المرض، صحيح أنني لم أقف على تفاصيل المرض ودرجة خطورته، لكنني بفعل قراءاتي وخبرتي أدرك معنى أن يصاب المرء بالسرطان، كل المؤشرات تدل على ذلك، هي تراجع الطبيب من مدة وأنا متيقن من ذلك لكنني ومن قبيل المحافظة على مشاعرها أوحي لها بعدم معرفتي لكي تطمئن، ويساعدها ذلك على سرعة الشفاء، سامحها الله ياسمين متمنيا أن يكتب لها الشفاء لتعود كما عهدي بها.

شباك الكتابة للطفل (٣٥)

الكتابة للطفل عمل مرهق وفن صعب. على عكس ما يتوقع الكثير من يستسهلون الأمر من لا يلقون بالا للجانب النفسي والانفعالي ومراحل متطلبات سن الطفولة. كتبت الكثير الكثير وقد كنت أظن أن ما أكتبه سيحظى بالقبول لدى محرر قسم الأطفال في الصحف والمجلات غير أن جهودي باءت بالفشل حتى أصبت بالإحباط لكثرة الردود التي وصلتني من الصحف معتذرة عن النشر. أصبح موضوع الكتابة للطفل يشكل لي هاجسا وتحديا. لنفسي ولإمكانياتي أولا وآخرا. إذ كيف يمكنني التباهي بالكتابة للكبار وأنا فاشل في أن يحظى نص لي فقط من كل محاولاتي الكتابية للطفل؟

قررت أخيرا أن أتجاوز حالة الإحباط واليأس وألا أستسلم للقنوط. وها أنذا أكتب هذه المحاولة مستفيدا من برامج الأطفال التي يبثها التلفاز لعل وعسى أن تنال رضى محرر الصحيفة التي لا يقرؤها غير المعلنين؟

سأجازف بإرسال هذه القصة مهما كانت النتيجة. هي محاولة فقط. فأنا تعودت على الردود السلبية التي أدمنتها. لكنني أتمنى أن أتسلم مرة أسبابا موضوعية يكتبها المحررون ردا على أسباب رفضهم

لمحاولاتي، هل تعتقدون أن هذا النص سيكون مصيره كما غيره مما أرسلت للصحيفة سابقاً أم أن لعنة الرفض ستطال هذا النص أيضا؟ لكم القرار في قبول هذه المحاولة أولا وأخيرا. فالمتلقي هو الذي يقرر في نهاية المطاف قبول أو رفض النص، وأمزجة الناس لا يمكنها أن تجتمع وتتفق على شيء، إذ الاختلاف بين البشر سنة وفطرة كونية لا يجب أن نختلف حولها....هيا إلى القصة ولنقرأها معا...

****

يحكى أن يتيما وأمه كانا يعيشان حالة فقر مدقع؟

مدقع؟ هل سيفهم الأطفال هذه المفردة؟

لم لا؟ سيتعود الأطفال على مثل هذه المفردات وستدخل ذائقتهم وترتقي بها، قالت الأم لطفلها يوما

: تعال يا بني واحمل هذا الوعاء واذهب إلى سوق الخردة عسى أن تبيعه ونشتري بثمنه ما يكفي حاجتنا.

ذهب الولد إلى حيث أمرته أمه

في الطريق قابل رجُلاً و امرأة

الولد : هل تشتري هذه الطنجرة يا عمي؟

رد الرجل أمام زوجته بغضب كأنه يهددها : ابتعد من طريقي أيها الأبله، لا حاجة بنا لمثل هذا الوعاء.

الولد : أرجوك يا عمي، أحتاج أن أشتري بثمنه وجبة طعام لأمي وإخوتي.

الرجل وزوجته بصوت واحد : ابتعد من طريقنا قبل أن نتصل بالشرطة. لكن المرأة ما لبثت أن استدركت وفتحت حقيبتها اليدوية وناولت الولد بعض بذار الخضار تقايض بها الطنجرة.

عاد الولد لأمه تملأه السعادة فسألته الأم قبل أن ينقط أنفاسه الضائعة

:- بشر، هل وجدت مشتريا للطنجرة يا ولدي؟

أجاب الولد بسرور لم يستطع مداراته

:- نعم يا أمي وقد استبدلتها بهذه البذار.

ردت الأم بغضب

: - وماذا سنفعل بها يا مقصوف الرقبة؟

ثم انهالت عليه بالضرب وهو يتخلص من بين يديها بصعوبة. وقد أمسكت بالبذور وألقتها من نافذة الغرفة.

فتحت الوالدة نافذة الغرفة صباح اليوم التالي واكتشفت أن السماء قد غسلت الأرض بماء المطر وقد نمت البذور واستطالت. فرحت الأم وتمنت لو أحضر ولدها بذور الفواكه مما تتمنى أن تأكلها وأولادها مما لم يدخل لهم بيتا من شهور طويلة.

سُر الولد لهذه المفاجأة السعيدة غير المتوقعة. فنام هانئا حتى استغرق في نومه وما لبث أن رأى ماردا كبيرا في حلمه يسرق دجاجة تبيض ذهبا. فما كان من الولد غير أن سرق الدجاجة وولى هاربا. فلحق

به المارد راكضا حتى وقع ومات وأصبح الولد بذلك مجرما وقاتلا.
حمل الولد الدجاجة بكل لطف وعناية وسلمها لوالدته التي دعت له بالتوفيق وبدأوا ببيع البيض وشراء قصر كبير وسيارات في أجمل أحياء المدينة وأغناها وأرقاها. أما الولد فقد تذكر أصدقاءه الفقراء واتصل بهم وحاول أن يجد لكل منهم عملا يليق به في قصرهم الكبير. ما هو الدرس الذي يمكنكم أيها الأطفال أن تتعلموه من قصتنا؟

شباك المنفى (٣٦)

من عالم المجهول أطلّ، كلمة عابرة كانت. ما كان المتخيل ولا المأمول أن ينهار خلفها جدار الصمود والتحدي والرزانة والخفر الذي يليق بها.

مجرد كلمة قلبت المعادلات التي تنظر إليها للرجل، أي سر كان وراء التحول؟

قوامه الممشوق أم بدلاته المنتقاة بحرص وذوق، أم منطقه العميق في الدفاع عن قناعاته واستعداده للموت في سبيل ما يحب إيصاله؟

مجرد كلمة، يا للمرأة التي كانت تحسب حالها صخرة أمام أمواج المد الذكوري، كيف تمكنت تلك الكلمة من كشف هشاشة المستور في تركيبة الأنثى وتمكنت كيمياء كلمة أن تقلب الموازين وتبحر في البعيد؟

هل هو الحرمان أم التعويض أم تجسد المثال في شخص هو الذي دفع لقبول النزال في معركةٌ حُكم على نتائجها من أول جولة بالموافقة؟ ومنذ اللحظة التي رضيت أن تلبي نداء الرجل الكامن في الأعماق منك.

رضاك كان فاتحة عبور عالم رجل يتقن التعبير عن نفسه بوضوح صادق وحس نبيل، يعرف ما يريد ويدرك أن أقصر مسافة ما جاء بين خطين مستقيمين. هل كان النداء مجرد إيقاظ لمشاعر ورغبات نامت مؤقتا

أيقنت بموتها؟ هل نحاول بالعمل والحراك الاجتماعي دفن أحاسيسنا فينا وقتل رغباتنا المؤجلة في دواخلنا ولا تلبث أن تضطرم جمارها المستكينة تحت رماد الإهمال كلما اهتز وتر الروح ورقص طير الوجد؟

أكنت تصدقين نفسك أن ستؤول الأيام والأمور لما انتهت إليه وأنت تخجلين من مجرد الإفصاح عن كلمة قد تبدو لها ظلال معنى قد يفسر تهورا وتحسب على من يطلقها إن كان في مثل سنك وتجربتك؟

كم نحن أطفال كبار, وكم ينام فينا ذاك المراهق المسكين!

أي عذوبة وغموض وخوف يكتنف تجربة الحب في مواجهة رجل خرج إليك من ضباب عالم الرجال الغامض؟

إقدامه, جرأته, جديته المستهترة وربما استهتاره الجاد ما ملك عليك الأمر وربما ذرات مغناطيسيته تجمعت فمكنته أن يملك عليك الوجدان!!

أي نوع من الدموع تسح عيناك الآن, دموع فرح أم خوف أم دموع القلق الفرح لهذا العذب الذي برعم في الفؤاد دونما إنذار؟ ألا يكون الواقع غير حلم متأخر عابر؟

كثيرون تقربوا بالإغراء بمنصب, بمدح ثقتك بنفسك, بإطلاق وصف الحديدية, أعجبتهم المسافة التي ترسمين بينك وبين من يلازمك, زميل عمل أم عضو هيئة أم متبرع, لا تنقصك وسامة ولا بقايا جمال لا زال يطل على صفحة الوجه رغم أفول سنوات العمر الهارب, كنت للكثيرين قلعة تأبى الانفتاح على كثير من المحاولات التي فهمت رسالتها فلماذا (نضال) تحديدا؟

يلح السؤال وأنت تستعرضين أمام المرآة ملامح وسامتك وتغرقين كفك بعطر تمنحينه شذاه، تلامسين به مساحات في جسدك نسيتها. لماذا؟

قبل أن تجيب عن السؤال الذي تردد صداه في الصالة أصاخت السمع لنبضات القلب التي جأرت

-: إننا عبيد لمن يشعروننا بإنسانيتنا وأسرى قلوب نبضت بمحبتنا بلا أسباب ولا منافع ولا دوافع دنيوية تذكر، كيف يمكن للحياة في نظر امرأة أن تتغير في طرفة عين وكيف للحظات والأيام أن تتألق وتشع بالبهجة؟

شباك بئر الطفولة (٣٧)

كل من حولي يستغربون حالة العشق التي أحياها مع سعاد. هذه الزوجة التي مسحت دموعي عندما عز الصديق والقريب. وهي التي عالجت جراح روحي عندما لم أجد حضنا دافئا يحتويني.

هل فهمتم يا من تنظرون لي بعين الريبة والحسد وتتمنون أن تكون زوجاتكم مثل زوجتي التي عرفت حق الله في بيتها وزوجها وقرأت تفاصيل طفولتي واستطاعت أن تنفذ لأعماق وجداني. فكانت الأم والأخت والصديق عندما عز الأقرباء والأصدقاء ولم أجد حضن الأم الدافئ الذي يسعني ووجدت حضنها.

تتساءلون عن هذا الاستطراد غير المبرر ربما في رأيكم. وتودون أن تعرفوا لماذا أسهب في هذا الكلام في الوقت الذي وضعت عنوانا للحديث عن بئر طفولتي.

الأمر مرتبط ببعضه ولا يحتاج منكم غير الصبر فلا تستعجلوا.

ما ظنكم بطفل فتح عينه على الدنيا ولم يجد أما تتلقف دمعته وتسهر على راحته وتتألم لمرضه. ما ظنكم بمن نظر حوله فلم يجد غير روضة تأويه وجمع معه جيشا من الأطفال الذين لا أمهات لهم؟

قضى هذا الطفل طفولته وجزءا من يفاعته في أسرة كبيرة بلا أم ولا أهل. لم ير فيها غير طباخ الملجأ ومرضاته والقاسيات من العوانس اللواتي يقمن على راحتهم ولا يجدن متنفسا لغيظهن من عدم زواجهن إلا بالتصدي الحازم للطفولة الكسيرة؟

نشأ الفتى على حزمة من النواهي والأوامر المقرونة بالزعيق والتكشيرة المتجهمة التي صار يعتبر إزاءها أن بسمة من فم مسؤول في الملجأ تعادل فرح الدنيا.

تصور الفتى أن حدود دنياه تبدأ بباب الملجأ وتنتهي بسوره العالي الذي تنتهي مداميكه العليا بقطع الزجاج المغروس في الأسمنت قبل جفافه. تليها أكوام من الأسلاك الشائكة التي أصبحت مكهربة نتيجة التقدم التقني في الحماية.

عندما سجل الفتى في مركز التدريب ليتعلم مهنة تقيه عواصف الأيام وتقلبات الدهر وتدفع عن وجهه نظرات الشفقة من الموسرين الذين يأتون للملجأ وهم منتفخون بكبرياء الغنى.

رضي الفتى بالمصير الجديد خروجا من عزلة فرضها على نفسه قبل أن تفرضها عليه الحالة الماثلة.

خطوات كثيرة خطاها في سلم الحياة طفلا ويافعا وشابا وكهلا. غير أن الخطوة التي تسجل بنور من ضياء كانت في اليوم الأول الذي خرج من مدرسة التدريب وذهب للمشغل لينال الدروس التطبيقية على ما تعلم من نظريات. هل هي المفاجأة أم خطوط القدر التي يرسمها الخالق لنا دون أن

ندري ولا نلقي بالا لتصاريف الزمان الذي تأخذنا رياحه إلى حيث إرادة الله؟

لفتة ملائكية لم يلق لها وزنا ولم تحرك في ذهنه دائرة التساؤل ولا اهتزاز أوتار الصدر التي جدلها القدر لتتناغم مع لفتة إنسانية تجد تجاوبا حادا وغائرا في الأعماق. لفتة عفوية لجيش الفتيات اللواتي خرجن من مدرستهن نهاية الدوام في ذلك اليوم التشريني البارد. فرد نظراته على مساحة الشارع الممتد شمالا. فلماذا كانت تلك اللفتة هي التي عزفت نغمتها على حبة الفؤاد وحركت فيه الإحساس بالطمأنينة والامتلاء وجدوى الحياة التي أصبح لها في ناظريه معنى؟

الواحدة والنصف من ظهيرة كل يوم علامة فارقة ترصد بها ذرات الفتى وتتدوزن بها نبضاته، ويمكن للناظر بعمق أن يستجلي الاضطرابات التي تجتاح صفحة وجهه دون أن يقدر الراصد أن يصنفها في باب الفرح أم الارتباك أم الحيرة أم كل ذلك جميعا.

صار يستعجل الشمس للظهور لتمر من أمامه بمريولها الأخضر الذي تتكسر ثنياته على محيط خصرها وتتأرجح في دلال غاشم فتشحن بطارية طمأنينة ثقته بنفسه وبالدنيا التي حسبها خؤونة لا تلقي لاهتماماته الصغيرة بالا.

هذان القلبان اللذان تشربا الحب قد أسسا مداميك بيتهما الأولى ونقشا حروف قصيدة عشقهما فكانت زوجة وكان زوج وقد أدرك كل منهما بحاجة الآخر للثاني الذي أصبح نداؤه للآخر يا أنا. فوجد الطمأنينة والسكينة والحب والخلاص وكل ما يتمنى الزوج في امرأة الدين والدنيا.

شباك السؤال (٣٨)

قصاصات كثيرة جمعتها من بين ركام الأشياء الكثيرة. جهدت ترتيبها في محاولة لاستخراج معنى ما. كثير من الأوراق والقصاصات تآكلت أطرافها وتثنت وبهتت ألوانها وحروفها مما جعل عملية المطابقة مضنية....

التاريخ المعاصر يحتاج لوقفة تأمل بعيون ناقدة متخصصة غير منحازة...كثيرون من يطلقون الرصاص فهل وعينا الهدف من إطلاقه في هذا الوقت؟

هل عقدة الدونية تجعلنا نكبر الفعل ونضخمه مهما كان ضئيلا ويتحول فينا إلى غرور؟

هل نحن وأجيالنا محكومون بالهزيمة والفشل واللاخلاص؟

هل نحن وأجيالنا محكومون بالفشل والهزيمة؟

ما حققناه في عام ثلاثة وسبعين هل كان تكتيكا أم تحريكا أم انتصارا؟

لماذا نحن مجرد ظواهر صوتية فقط؟ هل مجمل إرهاصات كثيرة أوصلتنا ووصلت بنا لهذه الحافة نتيجة تخطيط متقن مسبق؟

التجارب الفكرية التي تظاهرت بالإسلام وامتطت صهوته. لماذا حولت الصراع من إسلامي صهيوني مبني على العقيدة ومنطلقا منها إلى صراع إسلامي إسلامي وإسلامي عربي وإسلامي فارسي؟

من خطط لتطفو الطائفية الممنهجة؟

أليست الثقافة سلطة؟ لماذا يظل المثقف بلا عين ولا أذن ولا لسان ومجرد موظف يتلقى راتبه من سلطة يدعي الكتابة ضدها ومعارضتها؟

لماذا يتقن المثقف التحليل والتنظير والحفظ بلا أثر على تراب الواقع؟ لماذا يظل شاهد زور ومجرد ديكور؟

شباك الخيبة (٣٩)

إن يكن القرب احتراقا فالبعد موت.

هذا ما انتهيت إليه بعدما تنقلت بين أكثر من مدرسة ودكان سياسي. صحيح أنني في البداية وبواقع تأثري بنظريات الكتب قررت أن أخوض غمار التجارب بدوافع وطنية اكتشفت زيف أعلامها ونظرياتهم لاحقا وأن همهم لم يتجاوز المركز والمنصب والجاه الاجتماعي ودفتر الشيكات المكتنز وتحولت على إثرها لمدرسة تختلف جذريا مع التوجهات الوطنية وينظر لها اكثر قربا من الأخلاق والاستقامة. الأمر الذي لفت انتباه الزملاء والرفاق لهذا التحول الطارئ من قبلي لدرجة أن صرخ أحدهم بوجهي مغتاظا : كم دفعوا لك!!

بين أقصى اليسار واليمين تأرجحت باحثا عمن أجد فيه كينونتي حتى قررت ترشيح نفسي لمقعد نيابي مدعوما من ذلك التيار الذي يدّعي الإصلاح والمعارضة والتدرج للوصول للحكم أملا أن يتحول المجتمع كل المجتمع لقطيع كامل من الملائكة.

لأكن صريحا مع نفسي وصادقا مع ذاتي، إنني في بحثي الدائب هنا وهناك لم أنطلق إلا من منطلقات ذاتية آخر أولوياتها النهوض بالمجتمع،

أي مجتمع وقد تركني أقارع نوبات الفقر والجوع والعري و يريدني الآن أن التفت إليه؟

لقد رأيت الكثيرين قبلي يلهثون لتحقيق هذه الغاية تحت مسميات وشعارات براقة جاذبة.

إلى أي حد يصل بي الانحدار يا إلهي؟

أعرف أنني تجاوزت الحدود في طلباتي. لكنه الواقع المر الذي دفعني بعد أن رأيت الكبار يلعبون في الأموال والمصائر ويستبدلون السارات والفلل الفارهة والزوجات. فهل كتب علي ألا أكون من طينة مختلفة؟

سامحني يا إلهي فأنا أعرف ضعفي وقلة حيلتي للمقاومة. أنا الآن أكثر من أي وقت مضى محتاجا لرحمتك. الغنى كان الهاجس الذي دفعني للقبول بصفقة المعلم الذي وعدني أن أخرج من فوق الأرض وأرى الدنيا ببهجتها من أول جولة وسفرة ومغامرة. لكنني حملت ما اتفقنا عليه في سيارتي التي أهداها لي. لم أكن على علم أن معلمي هو من وشى بي حتى يتخلص من عنادي وطمعي وطموحي بالضربة القاضية وإلى الأبد.

شباك لماذا كرهت أبي (٤٠)؟

لا يتناهى إليكم الظن أنني أعنون كتابتي بدافع الحقد على أبي، ذلك ليس صحيحا. إنها مسألة مختلطة بين العتب والأمل والشفقة، كانت تحدثني جدتي عن قسوة الطفولة التي عايشها أبي ومن هنا عذرت له قسوته التي ربما توارثها وحملها من ذكرياته الأليمة. لكن ما أستبشعه من والدي تلك القسوة غير المبررة تجاهي بالتحديد. فخطأ صغير ككسر صحن لا يستحق أن يكوي ظهري بالمعلقة التي يشويها على النار، والتأخر في الذهاب لدكان أبي العبد لإحضار شفرة حلاقة وحيدة ماركة النسيت لا يساوي أن يتراجع أبي عن مشروع حلاقته ويلم الجيران بصراخه. وهو يحاول تربيطي بقائمة المسند الذي تراكم عليه أمي فراشنا المتواضع. ناهيك عن حالة الهياج والصوت العالي والزعيق الحاد الذي يملأ المكان لمجرد أن تلكأ أحدنا بتنفيذ أمر تافه. كان معنا، أقصد الأولاد مثل طاووس ينفش ريشه ويتخايل بإلقاء الأوامر جزافا حتى لو لم يكن لها أدنى مبرر. أما إن انقلب الحال وصادف وجود أمي التي تقضي نهارات أيامها تغسل للجيران وتسهر على نظافة بيوتهم، فيتوارى الزعيق ويذوب الصوت الملعلع ويعود لأبي وقاره وسمته الرزينة وهدوءه الوديع الذي لم نستطع كشف مفاتيح تغيراته وتقلباته. ما زلت بعد

مرور هذا العمر أسأل نفسي كلما خلوت لها : لماذا يستكين أبي في حضرة أمي؟ ولماذا تتبدل أحواله رأسا على عقب؟ هل لسلاطة لسانها علاقة بالأمر؟ أم أن تعطله عن العمل واكتفاءه بحراسة البيت راضيا هذا الدور دون أن ينظر لقسمات وجه أمي التي يتورد خداها وتتسع بسمتها وهي تغمز يده بكومة الدنانير نهاية كل شهر؟

الملفت في والدي أيضا أن قسوته لا تنمو إلا داخل بيتنا ومعي تحديدا. أما بين الناس والجيران فهو المسالم الوديع الذي تأكل القطة عشاءه.

عاطفتي تجاه والدي تتراوح بين اليأس من إصلاحه والشفقة عليه خاصة إحساسه بالتضاؤل أمامها حد التلاشي.

تحرق قلبي نيران الغيرة و أولاد الجيران والأقارب يتباهون بعطف والدهم عليهم وبذله الغالي من أجل سعادتهم والحرص على راحتهم.

ماذا بيدي أن أفعل وإخوتي لا يشاركونني الرأي في تقييم حالة أبي وهم يطلبون مني أن أحمد الله على أن وهبنا مثل هذا الأب الذي يطلقون عليه مثاليا؟

شباك الخشية (٤١)

لماذا أتلفع بثوب التضاؤل عندما أقف أمامه وهو من يجب ألا ينسى تاريخه معي عندما كنا في بدايات الثانوية أيام كان يعتمد علي من ألفه إلى يائه. وكنت أغطي كسله وإهماله بتمكينه من الحصول على الحد الأدنى من العلامات التي تحول دون تقريع وضرب والده له؟

تغير به الحال بعد رسوبه في الثانوية العامة وغاب طويلا ليعود بوجه ناضح بالعز وثياب معطرة بالياسمين. وأكف مزدانة بالألماس وجيب ينام فيه دفتر شيكات يكاد ينطق بالعز. لم تخنه الذاكرة من أول لحة رآني فيها وأكبرت فيه هذه الأريحية التي يفتقدها الأغنياء بالطفرة عندما لا يتجاهلون مجايليهم أيام الفقر. فرد ابتسامة على وجهه الأبيض وتقدم بأدب..

-: إن لم تخني الذاكرة فأنت عصام؟

-: ومن يتذكر عصاما في هذه الأيام البائسات يا أستاذ؟

-: الأستاذ من مد يد العون لحمار مثلي كان لا يتقن كتابة سطر في ورقة الفحص

-: علاء. غير معقول. أين هذه الغيبة ولماذا؟

-: أرزاق أيها الحبيب. ونظر لسيارته الكروزر بنظرة ارتياح.

-: ألن تخبر صديق مقعد الدراسة ومن كنت تعتمد عليه في حلك وترحالك دراسيا؟

-: ذلك كلام يطول. لدي مكتب في قبرص تجارة واستيراد. هذا باختصار.-: وبيروت النضال؟ وصلتني أخبارك من هناك يوما!!

-: تلك أيام ولت وأصبحت في ذاكرة النسيان. نحن أولاد اليوم وأصحاب العوائل والأولاد الذين يدرسون لنيل الشهادات العليا.-: ما شاء الله وتبارك. تزوجت إذن وأنت كنت تحارب المؤسسة الزوجية؟

-: ألا زلت تذكر شعاري؟

-: ومن ينسى؟ (الحليب في السوق فلماذا نشتري بقرا؟)

-: كانت مراهقات للإيقاع بالصبايا بالكلام الكبير الملفت فقط.

-: الوطنية وفلسفة الاجتماع وقراءة الكتب الممنوعة؟

-: لا أجمل من العمل تحت ضوء الشمس وعلى المكشوف وتحت نظر القانون.

-: وكيف يتم ذلك؟ أما من مخالفات قانونية ومجازفات خطرة؟

-: تشارك مسؤولا وتغدق على من يفسرون القوانين.

- : الأمر أعمق مما أظن وأوسع مما أستوعب.

-: لا تتعب قلبك. خبرني عنك!!

-: أنا؟

وأطلقت ضحكة مدوية انتبه لها من في السوق، ألا ترى عربة الخضار التي أمامك؟ هي عالمي وحدود دنياي

-: ألم تنل درجة عالية في الثانوية عندما فشلت أنا؟

-: نعم للأسف.

-: للأسف؟ ما هذه المرارة؟ لماذا لم تكمل دراستك وطموحك كان وسع الكون؟

-: الدراسة تحتاج لدنانير زائدة عما يملأ أفواه الفقراء.

-: المعنى؟

-: السوق المركزي وبسطة الخضار جامعتي

-: لا عليك، الحمد لله أننا التقينا وسنتدبر الأمر قريبا

-: كيف؟

-: ستلتحق بمكتبي الذي أعمل على فتحه بدبي

-: والمقابل؟ أنا رجل لا أملك إلا دفتر ديوني.

-: لا تحمل هما، كل الموضوع أن تسافر شهريا لجنوب شرق آسيا براتب وعمولة أيضا.

فجر قنبلته بوجهي واقترب مني هامسا بكلام لم أستوعبه فصوت خرخشة الدولارات التي دسها في جيب قميصي حالت دون ذلك.

تُرى، هل الشعور بالتضاؤل سيلازمني وإلى أين ستأخذني أقداري بعد هذا العمر

شباك الطباعة (٤٢)

ها هي الأيام تنقضي والأوراق تتراكم بين يديّ ومن حولي، أسطر بها ما يمور حولي وبي من أحداث وآمال وأحلام وتطلعات، أضيف كل يوم جديدا لهذه الأوراق التي تكاثرت أعدادها، ويظل الحلم بطباعتها ورؤيتها بين دفتي كتاب حلما ينوس في الضمير.

كثيرا ما أوجه السؤال لنفسي : وماذا بعد؟ هب أن الكتاب طبع ووزع وانتشر بين الناس، ما الذي يعنيه ذلك لك؟ وهل نشر الكتاب سيغير من مرارة الواقع وسوء الأمر؟ أم أن الموضوع تجاوز في ذاتك كل الموضوعية وأصبح حاجة نفسية لتفريغ ضغط يمارس فعله عليك أكثر من كونه دافعا للإصلاح والتغيير ونشر الوعي !

حقيقة أقف عاريا أمام السؤال الذي حيّرني الإجابة عنه، غير أن التفاصيل تأخذني وأهرب بوعي من المواجهة.

موضوع الطباعة معقد وشائك بلا أدنى ريب، ستمر كلماتك أولا على الرقابة التي تعرف كل شيء إلا الإبداع، ولا تعرف من القراءة غير التابوهات المقدسة الثلاث والقلم الأحمر الذي يحذف ويعدّل وتكون النهاية تشويها للفكرة والصورة والإبداع الذي حاولت تسطيره، هذا في

حالة أن تكون محظوظا ولا يصادر المخطوط بالكامل وتجرجر هنا وهناك وتقع في قبضة السؤال والاستجواب وإثبات حسن النية ومحاولة تفسير المقصود أمام أناس لا يعرفون المجاز ولا الرمزية ولا التناص إلى آخر القائمة. أم ستنتظر حتى تتحول الرقابة على المصنفات تنطلق من نظرة إبداعية فنية محضة!! وعندها سيطول الانتظار.

إن قدر لمخطوطك المرور بأمان من بين أنياب الرقابة فسيكون مشوارك أطول من الناشر التاجر الذي يبتزك بدعوى كساد السوق وضعف الإقبال على الشراء وكل محطات التثبيط التي أتقنها من وظيفة التجارة لينتهي إلى ضرورة دفع التكاليف حتى تطمئن على نجاح الطباعة وتمامها مقابل ألف نسخة يحتار الناشر كيف يسوقها ولتكتشف بعد ملاوعات كثيرة أنه طبع ثلاثة آلاف نسخة ونفدت الألف الأولى في غضون ستة أشهر. وأنه قد باع النسخة الواحدة بضعفيّ المبلغ الذي فاوضك من أجله. وعندما تراجعه بين الفترة والأخرى لتأخذ بعض حقك مقابل البيع يتهرب بالادعاء بكساد الكتاب الذي لم يحظ برواج فتسلم أمرك للصدفة والظرف القاهر وتأخذ على نفسك العهد بعدم تكرار المحاولة واقتراف هذا الجرم.

شباك الإقالة (٤٣)

أقلت من وظيفتي، كان يوما مشهودا في تاريخي الوظيفي والسياسي ومحطة لا يمكنني نسيانها، أؤكد على كلمة أقلت، هذا ذر للرماد في العيون، فقد استدعيت على عجل لمكتب الرئيس ووجدت الاستقالة تنتظرني في جو مهيب يلونه الصمت والجدية وتتناقل معاني الحزم فيه نظرات ترمي عدم ارتياحها هنا وهناك دون أن يقول أصحابها ولو كلمة.

غمزني أحدهم بطرف عينه بصيغة الأمر دون أن يلفت انتباه الحاضرين وأشار بيده لأتناول الورقة وأقرأ ما فيها، قرأت السطور التي كتبت بإنشائية لا تمت للواقع بصلة وكان في آخر التنويه رغبتي بالراحة من المنصب حتى أعطي الفرصة للطاقات الشبابية حتى تكمل المسيرة، لا أعرف الدافع الذي جعلني أكتم صرخة وضحكة معجونة بالسخرية من تلك العبارة (أعطي الفرصة للطاقات الشابة). كم هو محزن أن نضطر للكذب حتى آخر لحظة نغادر فيها مواقعنا.

وقعت بيد راجفة وأنفاس مكتومة على ما هو ضد رغبتي فكيف أتنازل عن وظيفة قضيت زهرة الشباب على كرسيها، لأمر الناهي، صاحب المقام الرفيع الذي لا تغيب عن عينه في الوزارة شاردة ولا واردة!!

الوظيفة هي التي جعلت مني الباشا : الاسم واللقب الذي التصق بي ومهّد الطريق أمامي لكل الموبقات بدءا من زيجاتي التي لا عداد لها، وتمت بعقود.كان ثمنها باهظا ومرورا بعطاءات رست على شركات لي فيها نصيب أو دفع أصحابها عمولات مجزية مكنتني من بناء قصري المنيف النائي الذي استعمله خلوة للأصحاب ممن بيدهم الأمر عند الحاجة لمدارسات سياسية أو اقتصادية خطيرة، تلك العطاءات التي جعلتني أقتطع من أي مشروع في طريق النشوء نسبة من الأرض.

أقلت. أقولها وأنا أتلفع بالألم، اكتشفت أن تلك الصولات والجولات لم تكن لشخصي وأن منصبي كان وراء تلك البهرجات والنفاق والمجاملات وها هو الدليل أمام عينيّ ماثل للعيان، فها هو هاتفي يعلن الصمت ويرفض أن يتنفس ولو بمكالمة مجاملة، فأين هم الذين أنهكوني باللقاءات والتوسطات، هل تبخروا في رمشة عين وقد شحذت همتي وأنا أرنو من نافذة مكتبي لحديقتي التي تبتهج بالخضرة والورود والأشجار التي تتراقص أغصانها أمام ناظري هبوطا وصعودا عازفة لحن سعادتها.

شحذت الفكر وأنا أتطلع للسقف الذي تزينه الأضواء واللوحات والبرادي التي استقدمتها من الخارج ضمن عطاء رسمي، محاولا في هذه اللحظة تذكر المثل الشعبي الذي يصف حالتي ويمثلها وقد استهلكت الكثير من السجائر والقهوة مستدعيا المثل بلا جدوى حتى عثر المثل بي أخيرا « الناس مع الواقف......» ولم أكن جريئا لدرجة الكفاية لأكمل المثل الذي ليس لصالحي بالتأكيد.

أزعجتني حالة حراك النفاق العام، إذ لم تكن تمر مناسبة في أسرتي صغرت أم كبرت إلا وتزدحم صفحات الجرائد بالتهاني ولا تتوقف هواتفي عن الرنين وما يحيرني أكثر نفاق تلك الأوساط الاجتماعية الدنيا والمغمورة التي ما توقفت عن التمحك بي والتقرب من أمثالي رغم إدراكهم أنني ما تسلمت منصبي لكفاءة ولا نظافة يد ولا إخلاص لمبدأ. وأن الشعارات الكثيرة والكبيرة التي كنت أرفعها دون أن أعرف شيئا عنها غير التوقيع على فواتير المطالبات لأقمشة اليافطات وأثمان الدهانات التي تشوه واجهات جدران الشوارع والحارات وأجور الخطاطين. مصيبة كبرى أن تصل الحال بالانتهازيين لدرجة أن تنطبق على الجميع مقولة : « فرقتهم السياسة وجمعهم المنسف».

شباك القراءة (٤٤)

تذمر الولد أمام أبيه من مشاق الحياة التي يكابدها في عمله وبين زملاء مهنته. وتساءل كيف الطريق للمواجهة أم يرفع راية الاستسلام وينتظر قدره؟

فما كان من الأب غير أن حدق في وجه وليده طويلا وأرسل ابتسامة هادئة ومد يده ملتقطا كف ابنه وسارا معا إلى المطبخ.

ملأ ثلاثة أوان بالماء ووضعها على نار ساخنة..

سرعان ما أخذت الماء تغلي في الأواني الثلاثة.

فوضع الأب في الإناء الأول جزرا وفي الثاني بيضة ووضع بعض حبات القهوة المحمصة (البن) في الإناء الثالث.

راح الوالد ينتظر ومعه دهشة ولده من هذا الفعل الذي لا يدرك كنهه لكنه اكتفى بالصمت والانتظار حسب تعليمات الأب. مفكرا بينه وبين نفسه :
ماذا يريد أبي من هذه التجربة؟ هل يريد أن يعلمني مهنته بعد هذا العمر؟

انتظر الأب وولده وقتا ليس بالقليل.. ثم أطفأ النار وبدأ يضع كل نوع في صحن خاص.

وما أن انتهى من ترتيب الصحون حتى تنفس بعمق ونظر إلى ولده فرحا وقال : ماذا ترى الآن أيها الولد النجيب؟؟

-: جزرة وبيضة و حبة بن.

أجاب الابن بثقة.

-: حاول أن تمسك الجزرة. قال الأب

-: وطريا ناضجا ورخوا..!

-: هل تنزع قشرة البيضة؟

- : نعم. بكل سرور. إنها صلبة قاسية!!

-: ما رأيك برشفة من القهوة؟

وعندما فعل

توجه بالسؤال لوالده

-: وماذا وراء ذلك يا أبي؟

- : اعلم أن كلا من الجزرة والبيضة والبن واجه نفس الخصم / المياه المغلية /... لكن كلا منها تفاعل معها على نحو مختلف.

لقد كان الجزر قويا وصلبا ولكنه ما لبث أن تراخى وضعف. بعد تعرضه للمياه المغلية.

أما البيضة فقد كانت قشرتها الخارجية تحمي سائلها الداخلي. لكن هذا الداخل ما لبث أن تصلب عند تعرضه لحرارة المياه المغلية.

أما القهوة المطحونة فقد كان رد فعلها فريدة... إذ أنها تمكنت من تغيير الماء نفسه.

وماذا عنك؟ هل أنت الجزرة أم البيضة أم حبة البن؟

أم أنك مثل البن المطحون.. الذي يغيّر الماء الساخن..(وهو مصدر للألم).. بحيث يجعله ذا طعم أفضل؟!

فكريا بني كيف تتعامل مع المصاعب وحاول أن تتكيف وتقهر الظروف المحيطة لتختار الموقف المناسب.... لتقرر إن كنت مكان أي منها.

شباك الخيبة (٤٥)

لا مفر من التناسي والنسيان، من امتحنته الدنيا بالمال والجاه والمنصب لا بد أن يقف أمام الامتحان ليعوّد نفسه على عمل ما لا يحب ليعيش ما يحب. أنا من دخل سلك الوظيفة متلبسا بأفلام البحث عن المجرمين ودقة متابعتهم. صحوت على حلم أن أخدم الوطن يوما بهذه المهنة، عملت المستحيل ووسط والدي المعارف والأصحاب لدخول المهنة. وبفعل إرادتي ورغبتي وحب الظهور لدي وقوة كامنة لديّ في تتبع الناس بفضول غامر، ترقيت في المهنة وصرت شخصا يشار له بالبنان. كانت الإدارة في منطقتي تخيل لي كل ما هو مستعص. زهوت بانتصاراتي وتغاضيت عن كراهية المجرمين لي وحتى نظرات السياسيين الذين كنت أضايقهم بالاستجواب. غير أنني بقيت سادرا في تصرفاتي التي كانت تخرج عن روح القانون في أحيان كثيرة ويكون دافعها نفسي لا أدرك كنهه. أصبحت رجل المهمات الصعبة والمطلوب للاحتياط دوما عندما تقف مشكلة أمام قسمي الخاص أو أي قسم يفشل أفراده في التوصل لخيط يوصلهم إلى الهدف.

قضايا كثيرة مررت بها وتجارب لا تحصى تمكنت من تجاوزها. رئيسي المباشر دعاني يوما لحديث منفرد خاص وقدم لي فنجان قهوة وسيجارة

من النوع المستورد لفاخر وقال ضاحكا: هل تتعامل مع الجن؟

سحبت الكرسي الدوار من خلف المكتب واقتربت منه هامسا

-: ما الذي دعاك لمثل هذا الافتراء؟

-: أجاب بحديث الواثق المطمئن: هدوؤك وسرعة إمساكك بالخيط وتشعب نظرتك التي تحيط بالقضية. ألن تؤرخ ذكرياتك؟

-: أؤرخ؟ ومن أنا لأفعل ذلك؟ أنت تضعني في مكانة أكبر مني!!

بعد أن تتقاعد يمكنك أن تتفرغ للكتابة وبدورة قصيرة يمكنك أن تكتب المسلسلات. هل أسامة أنور عكاشة أفضل منك؟ ما مررت به من حكايات يفوق الوصف والخيال وما عليك غير أن تسطره على صفحات الورق. وعندها ستنسانا بعد أن يذيع صيتك وتتناقل الصحف أخبارك.

لم أعلق. اكتفينا بتبادل الابتسامات والسجائر وافترقنا وإن ظل الحلم يداعب خيالي. فمن يدري. ربما تصبح شيئا ذا بال أيها المحقق!! كل المطلوبين أسبر أغوارهم من أول نظرة. أستخرج مكنوناتهم وأعرف صدقهم من كذبهم. حتى أولئك الذين يحاولون الاستفادة من الوقت بالمراوغة كنت أحشرهم في الزاوية وأضيق عليهم الخناق حتى يعترفوا. إلا محسن. ذلك النمط من الرجال الذي يحيّر سامعيه ومناقشيه ومخبريه. وردت بحقه تقارير كثيرة تدينه. لكن سلوكه المتزن ونقاشه العقلاني ولباسه الرزين يمحو من ذهن من يتابعه أي صورة سلبية. فلا يملك معها إلا أن يتعاطف معه. صحيح أن الناس لم يتفقوا حول كرمه وتعامله المتعالي. ولكن الإجماع استقر على أنه نزيه اليد. نقي السريرة.

صحيح السلوك. تقدم من الكثيرين بمد يد المساعدة. وتوسط للبعض لدى معارفه لحل إشكالات مع بعضهم وشوهد مرات في المسجد يوم الجمع وفي رمضان تحديدا عرف عنه التواصل مع الفقراء بطرود الخير.

كيف للمحقق أن يربط بين أفعال تمويهية كثيرة يقوم بها المتهم خاصة إذا كانت تحت مسميات الخير والأعمال الإنسانية التي لا يختلف على دوافعها الأخلاقية اثنان؟

قلت إن الكثيرين شهدوا بوصول طرود الخير للعائلات المستورة ليلا وقد أجمعوا أنها تمت بإيعاز منه لرجاله الذين سرّب أحدهم الخبر على سبيل التفاخر والزهو والمباهاة. أما سرقة السيارات واختفاؤها وذوبانها بعد ساعات من وقوع التبليغ والتعميم عليها عبر كل المنافذ الأمنية فأمر محيّر فعلا.

أربكني هذا المتهم الذي لم يترك لي خيطا ولو قصيرا للإمساك به ضده. وقد وضع مستقبلي الوظيفي أمام امتحان رهيب. فإما أن أخسر ترقيتي التي وعدت بها أو أن أغادر مرتبي.

عصرت دماغي، استنفدت طاقتي، عدت للوراء كثيرا. طالعت الروايات البوليسية وكتب الجريمة وشاهدت الكثير من أفلامها عسى أن تدلني على ثغرة أدلف منها لاتهامه بدليل دون فائدة.

أجمع المخبرون على نشاطه وانتظام دخوله وخروجه من بيته وكرمه مع السائقين والبائعين، قليل العلاقات الاجتماعية نعم ولا يلتفت للتوافه من الأمور، طيبته زائدة. محبوب ويمنحك الانطباع الأولي المريح حالما تشاهده وتتحدث إليه من أول مرة.

قاصمة الظهر بالنسبة لي ولشعبتي أن الأمر تطور لترويج الممنوع وفي نفس المنطقة التي تكاثرت فيها السرقة، دون أن نتمكن من الإمساك بدليل واحد ضد هذا المشبوه، هل أعلن عجزي وأرفع راية التسليم أم أجازف بمستقبلي وأتحدى قدرتي وذاتي؟

لن أقبل أن تسجل القضية ضد مجهول كما هو معتاد في الأمور التي نفشل فيها بتحقيق العدالة، كفاني خزيا ومن حقي أن أقف وقفة مصارحة مع ضميري، لا يمكن للمتهم في كل هذه القضايا أن يكون خارقا في تخطيطه مهما كان ذكيا، هذا المتهم مطلع على خططنا وحركاتنا وأسرارنا، فإما أن يكون هو قائد العمليات الكبرى أو شريكا للمروج الأول.

شباك الكواليس (٤٦)

لم تكن المرة الأولى التي أزور الإمارة ولكنها الأولى التي أزور مبنى المحطة الفضائية .

أوقفت سيارتي قرب موقف للسيارات ولم أبال بلافتة الموقف التي تحدد الموقف للموظفين.

ولا برجل الأمن الذي رمقني بعين المستغرب الفاحص المريب.

بحثت عمن يرافقني في جولة على المحطة العملاقة، صادفت أحد المذيعين المعروفين في قناة المهلبية الذي استكشفني بنظراته عميقا، لفتته أناقتي وبذاخة بدلتي، فابتسمت وقلت له

-: أنا قادم من أجل أن آخذ جولة ... فقاطعني.

-: أنت الموظف الجديد إذن؟... هلاً...هلاً... من لبنان أم....؟ أهلا وسهلا..........

استدار واضعا يده على كتفي ودخلنا صامتين.

فتحت عدسة كمرتي وقلت في نفسي (وما رميت إذ رميت... اللهم سدد تصويري) .

أكمل المذيع قائلاً : شوف خيو أنت رجل محظوظ واحمد ربك. اسألني ليش!!

قلت : ليش؟

قال : اليوم هو العيد العاشر لميلاد المحطة وبعد ساعة راح نحتفل فيها! يعني بارتي يابو الزلف بارتي..........

أخرجت الذاكرة الثانية لكمرتي ووضعتها على حالة الاستعداد. دخلنا غرفة مليئة بالناس بعضهم لابسين من غير هدوم...

صاح مرشدي السياحي بفرح : يا صبايا. هون... هون .... هيدا الموظف الجديد (وأشار إليّ)

فصاحوا : هيييييييييييي فرفعوا الكؤوس وتراشقت القطرات فوق الرؤوس وتعالت الموسيقى وبدأ الرقص.

ابتسمت ووضعت إصبعي السبابة ووو...تشك تشك من كل زاوية.

رأيت بحكم خبرتي غرفة زجاجية في طرف الأستوديو تحيط بالمكان. ذهبت لصديقي المذيع.فوجدته مسطولا.

خاطرت وسألته

: ما تلك الغرفة يا ...؟

ألتفت وطاف رأسه حول عنقه بلا كابح فمسكته من شوشته ووجهته نحو الغرفة وهززت رأسه عله يستقبل الصورة.

ضحك بعد أن طوح برأسه قائلا

-: شوف خيو الله بيعطي الحمير فلوس. ما بنقول لا ... والحمير على عيني وراسي بس يوظفونا.......

قلت : اهاااااااا هيك لكان!!

طعنت الغرفة بنظرة، ألفيت شخصا يخرج ويتوجه لإحدى المذيعات التي كانت ترقص بلا وعي، وقف وهمس في أذنها فتبعته بلا اتزان.

قلت لصديقي

-: شو هيدا

قال

- : ولك ... الحمار ما بدو برسيم؟؟؟؟؟؟؟؟؟

قلت : فشر... مين قال؟ بدو..... بدو.......

نهضت أصّور وكلابهم تترنح ذات اليمين وذات الشمال.

صور بعض السحاقيات يتبادلن الحركات معلقة على جدران الأستديو فالتقطتها بخبث شديد.

طفت الحفلة طولا وعرضا، كانت الصبايا يعرضن عليّ الشمبانيا لكني تعذرت بالكاميرا وبالتصوير.

رجعت لصديقي السكران، تناوشنا أطراف الحديث

قلت

. –: الحقيقة أنا متفاجئ بالتحرر هنا! كنت إذا رأيتكم على الشاشة أعتقد أنكم حتى لا تدخنون.

ضحك حتى كاد أن يقع. أخرج لي من جيبه سيجارة مارجوانا.

قلت :- شكراً

فقال : - شوف عزيزي جورج ... قلت : اسمي أبو عليان......

قال : شوف عزيزي جورج (فأدركت أن العاصفة قادمة)

قال

: - التحرر رسالة سامية وهادفة وسهلة. والصعوبة عملية إيصالها , كم لديك قناة ماجنة في الفضاء؟؟ عندك ملايين. لكن كلهم يدورون في دائرة مغلقة. ما حدش بيلتفت عليهون.........

لكنا هنا و- تلفت نظرة حذر واطمئنان - بنلبس ثوب الوطن والعروبة وإحنا منه وفيه (ونملحها شوية إسلام, الي بدو وطنية. وقومية يلاقي. وإسلام يلاقي. مين مو عاجبو هيك طروحات معاصرة؟

شوف مثلاً محطة المهلبية

- : ... ما حدا بيصدقها إلا حمار.. مع الاعتذار...

قبل إمبارح المذيعة شربت هون. هيدا المكان وبثت كمن إشاعة عن الإرهاب والدولار وسلة العملات. مين يقرا ورق خيو؟

قلت : هذا يا عزيزي فقدان للمصداقية.

قال

- : شو؟؟ مصداقية شو يا عم!!! انت في واق الواق عشان تقول مصداقية!! لحظتها مر الحدث العلامة المذيع الذي كان يترنح وينثر قيئه الفاسد يعطر المكان.

أكمل صديقي حديثه قائلا

-: بس خيو ترى كلنا معذورين , الإرهاب يجب محاربته بأي طريقة. لو حكم الإرهابيين العالم ما تقدر تشوف كاس بعمرك. بعدين. مين إلي زرع وصنع ومول ونشر وأغرى الإرهاب؟ فلوسنا وفتاوينا ومحطاتنا الي سبحت مع التيار؟

قلت : ما شاء الله حكيم , يعني الحكمة من كل هذا الزيف والخداع هو محاربة الإرهاب وإفساد المجتمعات

قال : شوف خيو بما أنك لازم تعرف معنى الإرهاب يلي بدهم يعرفوا الناس عليه. وكمن صحا فجأة وتذكر ما يخيف قال بصوت غلبه الارتباك.

- : أنت مين؟

صببت له كأساً وقلت

- : أنا مراسل للواق واق جئت لأعريكم – آسف لأغطيكم -

شرب وقال : أنعم وأكرم...

فقلت

-: طيب عزيزي كيف توظفت هنا وأنت تملك هذه العقلية الفذة؟

قال

-: توسطت لي بنت خالي وأشار لمن كانت تسير نحو الغرفة الزجاجية.

قلت

- : والباقين؟

قال

-: الخنزرة والخسة يا عزيزي طريقها سهل.

قلت

-: اللهم اجعلنا من الفئة الناجية.........

قاطعني الحكيم السكران

-: بدك تعرف مين هي الفئة الناجية؟

ابتسمت وقلت

-: نعم، داخل على موسوعتك الثقافية أنا، أخرجني من هذا الضياع.....

قال

- : هي التي لا تملك فضائية تدلس بها على سذج هذه الأمة..

شباك الختام (٤٧)

موجات حنين تضرب جدران الروح. تعزف الريح سيمفونية كانون. تصفع حبات المطر زجاج النافذة بقسوة. بخار ضبابي يلف جنبات الوادي الذي يطل عليه البيت.

حالة استرخاء تنداح في الخلايا. لسعات وجد تتعملق. جهاز موسيقي حديث. أقراص إلكترونية مدمجة. ستائر تتماوج بدلال حالم. تعكس ألوانها المتساوقة مع دهان الجدران والسقف حالة الجو الضبابية التي أثقلت حنايا الصدر. تحركت الأيدي ترتب الطاولة. صفت الزجاجات والأكواب. ابتلع جهاز التسجيل القرص الذي اختاراه معا. نبتت شموع ملونة بحجم الفاجعة. اشتعل المكان بالذكرى. تحشرجت الحنجرة بالغصة. سحت الشموع دموعها متهاطلة على الجنبات. اختلط أنين التذكر بعزف الريح بأمواج الموسيقى. خرجت الحروف يتناوبها رجع الاحتراق. متصاعدة ببطء تتجاذبه عودة الماضي الذي لم يعد قريبا. صدح الصوت المجلجل القادم من بعيد......

لحظات نادرة ينهمل حنينها عذبا جارحا. يضيق الصدر. يختلط النشيج ويتسامى في البعيد خيال ظل يقترب مع ارتفاع نداء الكلمات.....

يا فؤادي... لا تسل أين الهوى......

ستائر النسيان.....

يسهر المصباح......

والذكرى

معي

وعيون

الليل

يخبو..........

في أدمعي....

يختلط النشيج بدموع الشموع بما تذرفه العيون بالموسيقى... ويعاود المقطع الذي سجلاه مرارا صداحه من جديد....

ستائر النسيان................يطغى عليه هدير الرعد... ومضات برق تتسلل من النافذة, تضيء الوجه الذي انتفخت فيه العينان, وتشبثت الأصابع على عنق الزجاجة التي أعلنت إفلاسها.

الهذياني الصغير

السيرة الذاتية للكاتب

سمير أحمد الشريف

- عضو رابطة الكتاب الأردنيين
- عضو اتحاد الكتاب العرب
- أكتب القصة القصيرة والدراسة النقدية

صدر له :

- الوجوه والأقنعة : دراسات ومكاشفات في الرواية السعودية الحديثة . نادي الطائف الأدبي . المملكة العربية السعودية ٢٠١١
- ترجمة مسرحية هنريك آبسن: بيت الدمية، صدرت عن وزارة الثقافة العراقية ضمن مطبوعات بغداد عاصمة الثقافة ,٢٠١٣
- الزئير بصوت مجروح: قصص، دعم وزارة الثقافة . الأردن، دار الينابيع . ١٩٩٤.
- عطش الماء: قصص . دعم أمانة عمان الكبرى/الدائرة الثقافية، دار أزمنة،٢٠٠٦ .
- مرايا الليل، قصص . دعم وزارة الثقافة ,٢٠١١ . المطبعة التجارية

تحت الطبع:

- المطر والغياب /مراجعات في القصة السعودية القصيرة /نادي نجران الأدبي٢٠١٤ .
- مخطوطات تنتظر النشر
- النوارس والبحر، دراسات في السرد الأردني الحديث.
- دراسات في السرد النسائي العربي الحديث.

المحتوى

سلسلة آفاق عربية

وحدي

أصوات منسية

أطياف تجتازنا

وجوه تستيقظ

تهب من ماضٍ مجهول

تتكسر صورة العالم

تهب الذكريات باهتة

الورق يبعث فيّ قلقاً

جارحًا

محق الإحساس الخانق

بالوحدة

لم يكن يغفو فيّ شيء





www.gocp.gov.eg

الثمن : ثلاثة جنيهات